وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الذى يحقق لهم النسبة ، ويوجب لهم الزلفى والقربة المشار الى ذلك بقوله تعالى « لعلكم تشكرون » وجعلهم على قسمين : مرادين ومريدين ، وإن شئت قلت : مجذوبين وسالكين . وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق .

قال الله تعالى : « الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب »[1] فالمريدون السالكون الى الله تعالى فى حال سلوكهم — محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار ، والأكوان ظاهرة لهم ، وموجودة لديهم ، والحق تعالى غيب عنهم ، فلم يروه ، فهم يستدلون بها عليه ، فى حال ترقيهم .

والمرادون المجذوبون — واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الأكرم ، وتعرف اليهم ، فعرفوه به ، فلما عرفوه على هذا الوجه ، انحجبت الأغيار عنهم ، فلم يروها ، فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم .

فهذا هو حال الفريقين ، وشتان ما بينهما ، أى بعد ما بينهما ، وذلك أن المستدل به على غيره — عرف الحق الذى هو الوجود الواجب لأهله ، وهو المختص بوصف القدم ، وأثبت الأمر المشار به الى الآثار العدمية ، من وجود أصله المشار به الى المؤثر ، المحقق وجوده ، والمستدل بغيره عليه ، على عكس ما ذكرناه ، لأنه استدل بالمجهول على المعلوم ، وبالمعدوم على الموجود ، وبالأمر الخفى على الظاهر الجلى ، وذلك لوجود الحجاب ، ووقوفه مع الأسباب ، وعدم احتظائه بالوصول والإقراب . والا فمتى غاب ، حتى يستدل عليه بالأشياء الحاضرة ؟ ومتى بعد ؛ حتى تكون الآثار القريبة هى التى توصل اليه ؟ أو فقد ؛ حتى تكون الآثار الموجودة هى التى تدل عليه ؟ وأنشد .

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدته كل مشهد

قال فى لطائف[1] المنن : واعلم أن الأدلة انما تنصب لمن يطلب الحق ، لا لمن يشهده ، لأن الشاهد غنى بوضوح الشهود عن أن يحتاج الى دليل ، فتكون المعرفة

---

(١) من آية ١٣ من سورة الشورى .

(٢) أى قال ابن عباد نقلا عن لطائف المنن .

باعتبار توصيل الوسائل إليها ـــ كسببية ، ثم تعود ـــ الى نهايتها ـــ ضرورية .

واذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن اقامة دليل ـــ فالمكون أولى بغناءه عن الدليل منها ، ثم قال : ومن أعجب العجب ـــ أن تكون الكائنات موصلة اليه . فليت شعرى : هل لها وجود معه ، حتى توصل اليه ؟

أو هل لها من الوضوح ما ليس له ، حتى تكون هى المظهرة له ؟

وان كانت الكائنات موصلة اليه ـــ فليس لها ذلك من حيث ذاتها ، لكن هو الذى ولاّها رتبة التوصل ، فوصّلت ، فما وصل اليه غير الهيته ، ولكن الحكيم ـــ هو واضع الأسباب ، وهى لمن وقف عندها ، ولم تنفذ قدرته عين الحجاب .

تعقيـــب .

الحق سبحانه وتعالى قسم الخلق قسمين : قسما اختصهم بمحبته ، وجعلهم من أهل ولا يته ، ففتح لهم الباب ، وكشف لهم الحجاب .

وقسما أقامهم لخدمته ، وجعلهم من أهل حكمته ، فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور ، مع شده الظهور .

فأما أهل المحبة : فهم يستدلون بالنور على وجود الستور ، وبالحق على وجود الخلق ، وأما أهل خدمته : فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور ، وبالخلق على وجود الحق .

أما من يستدل عليه ـــ فلبعده عنه فى حال قربه منه ، والا فمتى غاب حتى يستدل عليه اذ هو أقرب اليك من حبل الوريد ، ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هى التى توصل إليه « وهو معكم أينما كنتم » والله بما تعملون بصير[1]

---

(١) مما قاله « ابن عجيبة » فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم صفحات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ والآيه من سورة الحديد / ٤ .

الحكمة الثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَة مِنْ سَعَتِه[1] : الْوَاصِلُون إِلَيْه ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ[2] : السَّائِرُون إِلَيْهِ » .

قال ابن عباد :

هذه إشارة مليحة الى حال الفريقين : فالواصلون الى الله تعالى ـــ لما خرجوا من سجن الأغيار الى فضاء التوحيد ، وكمال الاستبصار ، اتسعت مسافة نظرهم ؛ فأنفقوا من سعتهم ، وتصرفوا فى عوالمهم ، كيف شاءوا .

والسالكون اليه ـــ مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم ، محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم ، ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المعلوم المقدر المضيق .

تعقيـــب

العارفون : وسعت عليهم أرزاقهم من العلوم والمعارف ، فأنفقوا على مقدار ما وصل اليهم .

والسالكون : ضيقت عليهم أرزاق العلوم ، فأنفقوا على قدر ما عندهم . وهذا التفسير الصوفى للآية الكريمة : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »[1]

---

(١) السعة : الغنى .

(٢) قدر عليه : ضيق عليه .

(٣) آية ٧ من سورة الطلاق .

هذا التفسير الصوفى ـــ لا يرفع الحكم الأصلى ـــ للآية الكريمة ـــ وهو أنها نزلت فى نفقة الزوجات ، فالتفسير الصوفى له اشارات ، وهذه الاشارات ـــ لا تنفى تفسير الآيه الكريمة حسب مقتضى اللغة وأسباب النزول ، وعلى ذلك فلا وجه لمن يحاولون انتقاد التفسير الصوفى ، فما هو الا بيان لخصوبة التعبير القرآنى ، دون أن يكون فيه تعطيل لمعنى شرعى[1] .

---

(١) من شرح العارف بالله الشيخ « زروق » تحقيق العارف بالله الشيخ « عبد الحليم محمود »

الحكمة الحادية والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« اهْتَدَى الرَّاحِلُون إِلَيْه بِأَنوار التَّوَجُّهِ ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَار الْمُوَاجَهَةِ : فَالْأَوَّلُون لِلأَنْوَارِ ، وَهَؤُلاَءِ الأَنوارَ لَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ لله ، لاَ لِشَيءٍ دُونَهُ : (قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ »[1] .

قال ابن عباد :

أنوار التوجه ــ هو ما صدر منهم الى الله تعالى من عبادات ومعاملات ، ومكابدات ومجاهدات ، وأنوار المواجهة ــ هو ما صدر من الله لهم من تعرف وتقرب وتودد وتحبب . فالأولون عبيد الأنوار ، لوجود حاجتهم اليها فى الوصول الى مقصودهم ، والآخرون الأنوار لهم لوجود غناهم عنها بربهم ، فهم لله لا لشيء دونه ، وسيأتى هذا المعنى عند قوله : « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الأكوان معك » ، قال الله تعالى : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

إفراد التوحيد بعدم ملاحظة الأغيار ــ هو حق اليقين ، ورؤية ما سوى الله ــ خوض ولعب ، وهما من صفات الكاذبين والمنافقين .

قال الله عز وجل إخبارا عنهم : « وكنا نخوض مع الخائضين »[2] .

وقال الله تعالى : « بل هم فى شك يلعبون »[3] .

---

(١) الانعام / ٩١

(٢) آية ٤٥ من سورة المدثر .

(٣) آية ٩ من سورة الدخان .

تعقيـــب

المريد ما دام فى السير ـــ فهو يهتدى بأنوار التوجه ، مفتقرًا اليها ، لسيره بها ، فاذا وصل الى مقام المشاهدة ـــ حصلت له أنوار المواجهة ، فلم يفتقر الى شيء ، لأنه لله ، لا لشيء دونه .

والآية الكريمة « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » جاءت على طريق أهل الاشارة ، فهى تجمع حقائقهم على وجه الاستدلال لمقاصدهم .

فالتقدير : حسبى الله ، أى اكتفيت به عن كل شيء سواه .

ومعنى « ذرهم فى خوضهم يلعبون » أى اتركهم يتشاغلون بكل شيء لا حقيقة له ؛ لأن اللعب هو التشاغل بما لا حقيقة له ، والوجود كله كذلك من حيث التحقيق[1]

---

(١) من شرح الشيخ '' زروق '' تحقيق الشيخ '' عبد الحليم محمود '' .

الحكمة الثانية والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« تَشَوُّفُكَ[1] إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ[2] مِنَ الْعُيُوبِ ـ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ[3] عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ » .

قال ابن عباد :

حكم المريد أن يتشوف الى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه ، ويتطلبها ، ويبحث عنها ؛ فان ذلك هو حق الحق تعالى منه ، فينبغى أن يحرص عليه ، ويصرف فيها عنان اعتنائه اليه ، ليحصل له صفاء أعماله من الآفات ، ونقاء أحواله من الكدورات ، وينتفى عنه الجهل والغرور ، وتنقطع من باطنه مواد الشرور .

وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه فى كتابه « رياضة النفس » فصلا فى الطريق الذى به يتعرف الانسان عيوب نفسه ، فلينظر فيه المريد . وقد جعل حاصله أربعة أوجه : أحدها أن يجلس بين يدى شيخ بصير بالعيوب والآفات ، فيحكمه فى نفسه ، ويتابع اشاراته فيما يشير به عليه .

والثانى مصاحبة صديق صدوق ، يجعله رقيبا على أحواله وأعماله ، لينبهه على ما يخفى عليه من مذام خلاله .

والثالث أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه ، إذ لا بد من جريان ذلك على ألسنتهم عند تلبسهم وغيبتهم .

---

(١) التشوف الى الشىء : الاهتمام به ، والتطلع اليه . وتشوفك : أى تطلعك بعين البصيرة .

(٢) ما بطن فيك من العيوب : أى ماخفى فيك من العيوب ، كالكبر ، والحقد والعجب والرياء .

(٣) ما حجب عنك من العيوب : أى ماغاب عنك كالأسرار الالهية ، والكرامات الكونية .

والرابع أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس ، اذ يطلع بذلك على مساويهم ، فإذا اطلع عليها منهم ـــ علم أنه لا ينفعك هو عن شيء منها ؛ لأن الطباع البشرية فى ذلك متقاربة ، وقد يظهر له فى نفسه ما هو أعظم مما يراه فى غيره ، فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها ، والتنزه عنها ، فهذا تلخيص ما ذكره ، ثم قال : وهذه كلها حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس ، مشفقا ناصحا فى الدين ، فارغا من تهذيب نفسه ، مشغولا بتهذيب عباد الله ، ناصحا لهم فمن وجد الطبيب فليلازمه ؛ فهو يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده أ هـ .

وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه من خفايا القدر ، ولطائف العبر ، فإنه حظ نفسه ، لا حق عليه فيه للحق تعالى ، فليطب عنها نفسا ، ولا يشغل بها عقلا ولا حسا ، وما ظهر له منها لا يسكن اليه ، ولا يعول عليه ، فان ذلك من المعايب القادحة فى عبوديته ، ولهذا قالوا : كن طالبا للاستقامة ، ولا تكن طالبا للكرامة فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ، ومولاك يطالبك بالاستقامة ، ولأن تكون بحق مولاك ـــ أولى بك من أن تكون بحظ نفسك .

ومن الحكايات فى المعنى الذى ذكرناه ـــ ماروى فى الاسرائيليات عن وهب بن منبه رضى الله تعالى عنه : أن رجلا من بنى اسرائيل صام سبعين سنه ، يفطر فى كل سنة سته أيام ، فسأل الله تبارك وتعالى : أن يريه كيف تقوى الشياطين على الناس ؟ فلما طال ذلك عليه ، ولم يجب ، قال : لو أطلعت على خطيئتى وذنبى بينى وبين ربى ـــ لكان خيرا لى من هذا الأمر الذى طلبته ، فأرسل الله اليه ملكا ، فقال له : إن الله تعالى أرسلنى اليك ، وهو يقول لك : ان كلامك هذا الذى تكلمت به أحب الى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك ، فانظر ، فاذا جنود ابليس قد أحاطت بالأرض ، واذا ليس احد من الناس الا والشياطين حوله كالذباب ، فقال : أى رب من ينجو من هذا ؟

قال : الورع اللين .

وسيأتى بيان أن الكرامات غير مطلوبه التحصيل ، ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل عند قوله : « ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه ».

تعقيـــب

تطلعك أيها الإنسان إلى ما خفى فيك من العيوب ، كالحسد والكبر والعجب ، والرياء . وسعيك للتخلص منها ـــ أفضل من تطلعك الى ما حجب عنك من الأسرار مثل : أسرار العباد ، وما يأتى به القدر ، والأسرار الالهية ؛ لأن تطلعك الى عيوبك ـــ سبب فى حياة قلبك ، أما تطلعك الى الغيوب ـــ فإنما هو فضول ، وقد يكون سببا فى هلاك نفسك ، فبحثك عن عيوبك ، وسعيك فى التطهر منها ـــ أولى من تطلعك إلى ما حجب عنك من الغيوب .

الحكمة الثالثة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« الْحَقُّ لَيْسَ بِمحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا الْمَحجُوبُ أَنْتَ عَنَ النَّظَرِ إِلَيهِ ؛ إِذْ لَو حَجَبَهُ شَيءٌ ــ لَسَتَرهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ ــ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ ــ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِه) » .

قال ابن عباد :

الحجاب على الحق تعالى محال ، واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا ، وهو بيِّن ، لا إشكال فيه ، والحجاب على العبد واجب ، من حيث ذاته ، إذ هو عدم كما تقدم ، ولا نسبة بين العدم والوجود ، فان أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء ، كيف شاء ، متى شاء ، رأى من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهذا مما يجب اعتقاده .

تعقيـــب

الحق ــ سبحانه وتعالى ــ محال فى حقه الحجاب ، فلا يحجبه شيء ؛ لأن من أسمائه الحسنى ــ الظاهر ، قال تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[1] » فلا يتصف بالحجاب لا ستحالته فى حقه .

وقد استدل ابن عطاء الله على ذلك بقوله : « اذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ولو كان له ساتر ــ لكان لوجوده حاصر ــ وكل حاصر لشيء ، فهو له قاهر « ولا يصح ذلك فى حقه تعالى ، لقوله فى القرآن الكريم :

« وهو القاهر فوق عباده »[1]

---

(١) آية ٣ من سورة الحديد .

(٢) من آية ٦١ من سورة الأنعام .

الحكمة الرابعة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« اُخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً »[1]

قال ابن عباد :

أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان : أحدهما ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهى الأعمال . والثانى ما يتعلق بباطنه وقلبه ، وهى العقود .

فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه ـــ فينقسم قسمين : أحدهما ما وافق الأمر ، ويسمى طاعة ، والثانى ما خالفه ، ويسمى معصية .

وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه ـــ فينقسم أيضا الى قسمين : أحدهما : ما وافق الحقيقة ، ويسمى ايماناوعلما . والثانى : ما خالفها ، ويسمى نفاقا وجهلا .

والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد ـــ يسمى فى الاصطلاح تفقها . والنظر فيما يتعلق بباطنه ـــ يسمى فى الاصطلاح تصوفا .

فهذان الأمران هما كلية العبد . وظاهره تَبَعٌ لباطنه بالضرورة ؛ لأن القلب هو الملك ، والجوارح جنوده ورعيته ، ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به ، وينهى عنه ، وقد نبه على هذا المعنى رسول الله ﷺ ، حيث قال : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها : دقيقها

---

(١) أوصاف البشرية : هى الأخلاق التى تناقض خلوص العبودية ، وهى نوعان : ظاهرة ، وهى أعمال الجوارح ، وباطنة ، وهى أعمال القلب . وكل من النوعين إما طاعة ، وإما معصية .

وجليلها . وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التى أشار اليها المؤلف رحمه الله تعالى . وهى التى تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق ، وهى كثيرة : مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال ، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء ، والتذلل للأغنياء ، واستحقار الفقراء ، وترك الثقة بمجيء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق ، والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر ، والغل والغش ، والمباهاة والتصنع ، والمداهنة والقسوة ، والفظاظة والغلظة ، والغفلة والجفاء والطيش ، والعجلة والحدة ، والحمية وضيق الصدر ، وقلة الرحمة ، وقلة الحياء ، وترك القناعة ، وحب الرياسة ، وطلب العلو ، والانتصار للنفس اذا نالها الذل ، وذهاب ملك النفس اذا رد عليه قوله ، الى غير ذلك من النعوت الذميمة ، والأخلاق اللئيمة . وأصل فروعها ، وعنصر ينابيعها انما هو رؤية النفس والرضا عنها ، وتعظيم قدرها وترفيع أمرها .

فبهذه الامور كفر من كفر ، ونافق من نافق ، وعصى من عصى ، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية ـــ لربه عز وجل ـــ من خلع . حُسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بأثر هذا : وشأن الصوفى انما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات ، وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم .

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه : فلا يكون المريد بدلا ، حتى يبدل[1] بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية ، وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين ، وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم ، فعندها يكون بدلا مقربا ، قال : والطريق الى هذا بأن يملك نفسه ، فبملكها ـــ تسخر له ، ويسلط عليها .

فان أردت أن تملك نفسك ـــ فلا تملكها ، وضيق عليها ، ولا توسع لها ؛ فان ملكتها ملكتك ، وان لم تضيق عليها ـــ اتسعت عليك ، واذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها ، واحبسها عن معتاد ملائمها ، فان لم تمسكها انطلقت بك .

---

(١) المعروف أن هذا التعبير الذى يستخدم فيه الفعل (يبدل) وما فى معناه ـــ يجيء بعده طرفان ، أحدهما تدخل عليه الباء ، وهو المتروك ، والآخر هو المأخوذ ، وعلى هذا النسق جاء تعبير القرآن دائما . غير أن تعبير أبى طالب المكى هنا على خلاف هذا ، فالباء فيه تدخل على المأخوذ المرغوب ، رغم عدم التوازن فى ترتيب الأطراف ، وتأمل الأزواج التالية للفعل (يبدل) لتدرك ذلك .

وان أردت ان تقوى عليها ـــ فأضعفها بقطع أسبابها ، وحبس موادها ، والا قويت عليك فصرعتك أ هـ .

فاذا قام بذلك المريد على الوجه الذى رسموه له ، والتزم الوظائف التى أمروه بها ـــ طهر قلبه ، وتزكت نفسه ، واتصفت بمحاسن الصفات التي تزينه بين العباد وينال بها ـــ من قرب ربه ـــ غاية المراد ـــ فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة : من التواضع لله ، والخشوع بين يديه ، والتعظيم لأمره ، والحفظ لحدوده والهيبة له ، والخوف منه ، والتذلل لربوبيته ، والاخلاص فى عبوديته ، والرضا بقضائه ، ورؤية المنة له عليه ، فى منعه واعطائه ، ويتصف فيما بين خلقه : بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر ، والحلم والاحتمال ، والصيانة والنزاهة ، والأمانة والثقة ، والعطف والتأنى ، والوقار والسخاء ، والجود والحياء ، والبشاشة والنصيحة ، وسلامة الصدر الى غير ذلك من أخلاق الايمان التى ينال بها العبد غاية السعادة ، والحسنى والزيادة .

قلت : وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضى الله تعالى عنهم بالتحلى والتخلى . أى التخلى عن الصفات المذمومة ، والتحلى بالصفات المحمودة . ويعبرون عنهما أيضا ـــ بالتزكية والتحلية . وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه أيضا . وستأتى الاشارة الى كيفية ذلك عند قوله : لولا ميادين النفوس ـــ ما تحقق سير السائرين .

فاذا صح للمريد هذا السفر ، وانقلب منه الى أفضل مستقر ـــ تحققت عبوديته لربه عز وجل ـــ فلم يملكه غيره ، ولم يسترقه سواه ، وارتقى فى القرب من ربه إلى أشرف محل ، فيكون هناك منزله ومثواه ، فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى : « لنداء الحق مجيباً » لأنه اذ ذاك مناديه باسم العبد ، فيقول له : ياعبدى ، فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب ، فيقول له : لبيك يارب ، فيكون صادقا فى اجابته ، متحققا فى نسبته ، ويكون أيضا من حضرته قريبا ، لوجود بعده عن نفسه التى من شأنها النفور عنها ، والفرار منها .

فاذا اقامه الحق تعالى مقام العبودية ، وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية ،

كان محظوظا من اقتحام الأوزار ، ميسر عليه أعمال الأخيار ، متحليا فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى ، محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى . قال الله عز وجل : « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون »[1] وقد قال الله تعالى : « ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون »[2] وقال عز من قائل : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[3] فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية ، وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية ، الا أن هؤلاء محفوظون لا معصومون على ما اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة ، والفرق بينهما هو ما قاله الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : إن المعصوم لا يلم بذنب البتة ، والمحفوظ قد تحصل منه همات وقد تكون له فى الندرة زلات ، ولكن لايكون له إصرار . أولئك الذين يتوبون الى الله من قريب ، وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص ، أولى التطهير والتمحيص فى آيات كريمة ، بصفات جليلة عظيمة ، وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة ، فقال تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » الى قوله : « خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما »[4]

وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير ، وما استنبطه منها أرباب الاشارات والتذكير . وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ، ومسترقو حظوظهم الدنيوية ، قال الله تعالى : " أرأيت من اتخذ الهه هواه "[5]

وقال النبى ﷺ فيما روى عنه : " تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم " الحديث

---

(١) من آية ١٩ ــ وآية ٢٠ من سورة الأنبياء .
(٢) آية ٢٠٦ من سورة الأعراف .
(٣) من آية ٦ من سورة التحريم .
(٤) الآيات من ٦٣ الى ٧٦ من سورة الفرقان .
(٥) من آية ٤٣ من سورة الفرقان

وهؤلاء هم من عبيد العدد[1] المعنيين بقوله عز وجل : '' إن كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا , لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا[2] . وأعلم أنه لا يتهيأ هذا السلوك الى حضرة ملك الملوك الا لمن وفقه الله الى معرفة نفسه ، ومار كبت عليه من مذام الصفات . ومن عرف ذلك من نفسه ــ لا يزال متهما لها ، مسيئا ظنه بها ، آخذا حذره منها ، والا وقع فى المعاصى والذنوب ، من حيث لا يشعر . وقد نبه المؤلف رحمه الله تعالى على هذا بقوله :

---

(١) يقصد بعبودية العدد من يدخلون فى قوله تعالى '' لقد أحصاهم وعدهم عدا ، والعبودية قسمان : عبودية ملك وقهر ، وهى عامة لكل المخلوقات ، كما فى قوله تعالى : '' ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا '' وعبودية خاصة بأحبابه جل وعلا ، وهى تتحقق بالاخلاص فى العبودية ، وتقرب صاحبها من حضرته تعالى .

(٢) الآيات ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ من سورة مريم .

الحكمة الخامسة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ [١] ، وَغَفْلَةٍ[٢] وَشَهْوَةٍ[٣] ــ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ[٤] ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ[٥] ، وَيَقْظَةٍ[٦] ، وَعِفَّةٍ[٧] ــ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ[٨] عَنْهَا ، وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لاَ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ ــ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ[٩] ، فَأَنَّى عِلْمٍ لِعَالِمٍ[١٠] يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ ؟ وَأَنَّى جَهْلٍ لِجَاهِلٍ[١١] لاَ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ » .

قال ابن عباد :

الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة ، وعدم الرضا عنها أصل

---

(١) معصية : مخالفة لما أمر الله به ، ونهى عنه .

(٢) غفلة : المراد غفلة القلب عن حضرة الرب .

(٣) شهوة : تعلق بما يشغل عن الله .

(٤) الرضا عن النفس : لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها .

(٥) طاعة : موافقة للأمر والنهى .

(٦) يقظة : دخول فى حضرة الرب .

(٧) عفة : علو الهمة عن الشهوات .

(٨) عدم الرضا منك عنها : لأن من لم يرض عن نفسه ــ لم يستحسن حالها . ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

(٩) لا يرضى عن نفسه : أى يسخط عليها ، ويعتقد نقصها .
خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه : أى أن صحبة من يرضى عن نفسه ــ شر محض ، لأنها تؤثر فيمن يصحبه .

(١٠) فأى علم لعالم يرضى عن نفسه : لأن رضاه صار حجابا له عن ربه .

(١١) وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه : إذ إنه بعدم رضاه عن نفسه بحث عن عيوبها وتخلص منها .

الصفات المحمودة وقد اتفق على هذا جميع العارفين ، وأرباب القلوب ، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها ، ويصيرٌ قبيحها حسنا ، كما قيل :

'' وعين الرضا عن كل عيب كَلَيلَةٌ ''

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا ؛ لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه ، ويتطلب عيوبها ، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد ، كما قيل فى الشطر الأخير :

'' كما أن عين السخط تبدى المساويا ''

فمن رضى عن نفسه استحسن حالها ، وسكن اليها ، ومن استحسن حال نفسه ، وسكن اليها ـــ استولت عليه الغفلة ، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره ؛ فتثور حينئذ دواعى الشهوة على العبد ، وليس عنده من المراقبه والتذكير ما يدفعها به ، ويقهرها ، فتصير الشهوة غالبة له ، بسبب ذلك .

ومن غلبته شهوته ـــ وقع فى المعاصى لا محالة ، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه ، ومن لم يرض عن نفسه ـــ لم يستحسن حالها ، ولم يسكن اليها .

ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا منتبها للطوارق والعوارض ، وبالتيقظ والتنبه ـــ يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها ، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة ، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة ، فيتصف العبد حينئذ بصفه العفة ، فاذا صار عفيفا ـــ كان مجتنبا لكل ما نهاه الله عنه ، محافظا على جميع ما أمره به ، وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل ، وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه .

فإذن لا شىء أوجب على العبد من المعرفة بنفسه ، ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها ، وبقدر تحقق العبد فى معرفة نفسه ـــ يصلح له حاله ، ويعلو مقامه . .

وقد ورد عن الكبار ، والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم ، والتهمة منهم لها ، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى .

ولذا قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه ـــ كان مغرورا ، ومن نظر اليها باستحسان شىء منها ـــ فقد أهلكها .

وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم يقول : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء »[1]

وقال أيضا أبو حفص رضى الله تعالى عنه : منذ أربعين سنة ، اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك .

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه : لا تسكن الى نفسك ، وان دامت طاعتها لك فى طاعة ربك . وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : ما رضيت عن نفسى طرفة عين . ويحكى عن سرىّ السقطى رضى الله تعالى عنه : أنه قال : إنى لأنظر الى وجهى فى اليوم كذا وكذا مرة ، مخافة أن يكون قد اسودّ ، لما أخافه من العقوبة .

وقال أيضا رضى الله تعالى عنه : من الناس ناس لو مات نصف أحدهم — ما انزجر النصف الآخر ، ولا أحسبنى الا منهم ، الى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ — رضى الله عنهم — فى هذا المعنى .

وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى — رضى الله تعالى عنه : جزءا صغير الجرم ، عظيم الفوائد فى عيوب النفس ، وكيفية مداواتها ، فلينظر فيه المريد .

وكذلك ألف قبله الأمام أبو عبد الله الحارث المحاسبى — كتابا سماه النصائح — جمع فيه من معايب النفس ، وخدعها وغرورها وشرورها — جملة شافية ، ونبه فيه على سنن دارسة عافية ، مما كان عليه سلفنا الصالح ، رضوان الله تعالى عليهم ، من التفتيش والتفقد ، والنظر فيما تصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم ، والمحافظة على تطهير الأسرار والقلوب ، والمبالغة فى الحذر من محقرات الذنوب .

وقد نقل الامام أبو حامد الغزالى — قدس الله روحه — منه فصلا فى كتابه ، واعتمد فيه ذِكْرَهَ بلفظِه ، ونصّ خطابه ، بعد أن اثنى على مؤلفه بما هو أهله ، فبان للجاهل به علمه وفضله ، فقال فى حقه : والمحاسبى رحمه الله تعالى حبر الأمة فى علم

---

(١) من آية ٥٣ من سورة يوسف ، وسياق النص الكريم يجعل هذا القول لامرأة العزيز ، لا ليوسف عليه السلام . (المراجع)

المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وإغرار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه ، ثم ذكره .

وقد كان أوحد زمانه علما وعبادة ، ونخبة أوانه ورعا وزهادة ، سيدى الحاج أبو العباس بن عاشر رحمة الله تعالى عليه ورضوانه ـــ يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب ، والعمل بما تضمنه من حق وصواب ، وأظننى سمعته ذات يوم يقول : لا يعمل بما فيه إلا ولىّ ، أو كلاماً هذا معناه ، فليتخذ المريد مطالعته ورداً وليحرص على العمل بما تضمنه . مستعينا بالله تعالى ، وسائلا منه توفيقا ورشدا ، لينصح لمولاه فى مراعاة إصلاح باطنه ، والقيام على قدم الصدق فى مواطنه ، وليجعل هَجِّيراه[1] مطالعة كتب التصوف ، وموالاة أهله ، بالتألف والتعرف ؛ فبذلك تتقوى أنوار إيمانه ويقينه ، وتنفى عنه الغِرَّة فى عمله بوظائف دينه ، ولا يُقَدِّمُ على ذلك إلا فرض العين ، وما يستجم به نفسه من مكابدة التعب والدين ، ولا يشغل نفسه بعلم يغبر على وجه مقصوده ، ويوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده .

وما أكب الناس عليه اليوم ، وحادوا به عن سنن القول ، حتى أكسبهم ذلك من رذائل الصفات ، وعظائم الآفات ـــ ما صار بهم الى الهلاك والشقاء ، وأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم اللقاء ، وسجل عليهم بالكذب فى دعواهم ـــ أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم . فاياك وأياهم ، وأنشد :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ولذلك قال المؤلف : وَلَأَنْ تصحب جاهلا ، لا يرضى عن نفسه ـــ خير لك من أن تصحب عالما ، يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل ، لا يرضى عن نفسه ؟

فائدة الصحبة انما هى الزيادة فى الحال ، وعدم النقصان فيها ، حسبما يأتى الكلام عليه ، عند قوله :

ولا تصحب من لا يُنْهِضُكَ حالُه ، ولا يدلُّك على الله مقاله ، فصحبة من يرضى عن نفسه وان كان عالما ـــ شرّ محض ، ولا فائدة فيها ، لأن علمه غير نافع

---

(١) أى :ليجعل دأبه وشأنه وعادته . (المراجع)

له ، وجهله الذى أوجب رضاه عن نفسه ــ صار غاية الضرر ، وكأنه ــ اذ فاته هذا العلم الذى يريه عيبه ، حتى لا يرضى عن نفسه ، لا علم عنده ، وصحبة من لا يرضى عن نفسه ، وان كان جاهلا خير محض ، وفيه كل الفائدة ، لأن جهله غير ضار ، وعلمه الذى أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع ، وكأنه اذ حصل له هذا العلم ــ لا جهل عنده .

الحكمة الثامنة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَتَعَدَّ[1] ، نِيَّةَ هِمَّتِكَ[2] إِلَى غَيْرِهِ ، فَالْكَرِيمُ ــ لاَ تَتَخَطَّاهُ الْآمَالُ[3] » .

قال ابن عباد :

الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها الى غير الكريم ، ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى . قال الجنيد رضى الله تعالى عنه : الكريم الذى لا يحوجك الى مسألة .

وقال الحارث المحاسبى رضى الله تعالى عنه : الكريم الذى لا يبالى من أعطى .

وقيل : الكريم الذى لا يخيب رجاء المؤملين .

وأجمع العبارات فى معنى وصف الكريم ــ ما قيل : الكريم الذى اذا قدر عفا ، و اذا وعد وفى ، واذا أعطى زاد على منتهى الرجا ، ولا يبالى كم أعطى ، ولا لمن أعطى ، وان رفعت حاجة الى غيره ــ لا يرضى ، واذا جفا عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به والتجأ ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء .

فاذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى الله تعالى ــ فينبغى إذن ألا تتخطاه آمال المؤملين الى غيره ، كما قال بعضهم :

---

(١) لا تتعد : أى لا تتجاوز

(٢) نية همتك : قصدها الذى تتوجه به .

الهمة : القوة المنبعثة فى طلب المقاصد . الآمال : ما يقصده القاصدون .

(٣) لا تتخطاه الآمال : لا تتجاوزه الى غيره .

حرام على من وَحدَّ الله ربَّه وأفْردَهُ أن يجتدى[1] أحدًا رِفْدَا[2]
ويا صاحبى قف بى مع الحق وقْفَةً أموتُ بها وَجْداً[3] وأحيا بها وُجْدَاً[4]
وقل للملوك الارض تَجْهَدُ جُهْدها فذا الملكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

---

(١) يجتدى : يسأل .
(٢) رفدا : أى عطاء .
(٣) الوَجْد : الحزن .
(٤) الوُجْد : اليسار ولسَّعة .

الحكمة التاسعة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَرْفَعَنْ إِلى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ ــ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟

قال ابن عباد :

إذا أورد الله تعالى عليك حاجة ، أو أنزل بك نازلة ، فاعلم أنه لا رافع لها سواه ، إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعا ؛ لثبوت توحيده فى أن لا فاعل سواه ، وإذ هو غالب على أمره ، لا يغالبه أحد ، ويستحيل أيضا أن يرفعه عنك ــ من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه ، لو نزلت به ، لثبوت عجزه وضعفه .

ومن المحال تعلقك فى حاجتك بمن هو محتاج مثلك .

قال بعضهم : من اعتمد على غير الله ــ فهو فى غرور مما لا يدوم ، ولا يدوم شىء سواه ، وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان ، فلا تعتمد الا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء ، فى كل نفس وحين ، وأوان وزمان .

قال عطاء الخراسانى رضى الله تعالى عنه : لقيت وهب بن منبه فى الطريق ، فقلت حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى ، وأوجز . قال : « أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود : أما وعزتى وجلالى لا يَسْتَنْصِر بى عبدٌ من عبادى دون خلقى ، أَعْلَمُ ذلك من نيته ــ فتكيده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ــ الا جعلت له منهن فرجا ومخرجا . أما وعزتى وجلالى

وعظمتى ــ لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ــ أعلم ذلك منه ــ الا قطعت أسباب السماوات السبع من دونه ، وأسخت[1] الارض من تحته ، ولا أبالى فى أى واد هلك » .

قال محمد بن الحسين بن حمدان : كنت فى مجلس يزيد بن هارون ، وكان الى جانبى رجل ، قلت له : ما اسمك ؟ فقال : سعيد ، فقلت : ما كنيتك ؟ قال : أبو عثمان ، فسألته عن قصته وخبره ، فقال : نَفِدَتْ نفقتى ، فقلت : ومن تؤمل لما قد نزل بك ؟ فقال : يزيد ، فقلت : اذن لا يسعفك بحاجتك ، ولا يُنْجِحُ طلبك ولا يُبَلِّغُكَ أملَك ، فقال : وما علمك بهذا رحمك الله ؟ قلت : إنى قرأت فى بعض الكتب : أن الله عز وجل يقول : وعزتى وجلالى ، وجودى وكرمى ، وارتفاعى فوق عرشى ، فى علو مكانى ــ لأقطعن أمل كل مؤمل لغيرى بالإياس[2] ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، وَلأُنَحِّيَنَّهُ من قربى ، ولأقطعنه من وصلى ، أيُؤَمِّلُ غيرى فى النوايب ، والشدائِدُ بيدى ؟ وأنا أُنَحِّى ، وَيُرْجَى غيرى ؟ وتَطْرُقُ الفِكَرُ أبوابَ غيرى ، وبيدى مفاتيح الأبواب ؟ وهى مغلقة ، وبابى مفتوح لمن دعانى ؟ من الذى أمَّلَنِى لنائبةٍ فقطعت به دونها ؟ ومن الذى رجانى لعظيم جُرْمِه ، فقطعت رجاءه منى ؟ أم من ذا الذى قرع بابى فلم أفتحه له ؟

جعلت آمال خلقى بينى وبينهم متصلة ، فتعلقت بغيرى ، وجعلت رجاءهم مدخرا لهم عندى ، فلم يرضوا بحفظى ، وملأت سماواتى ممن لا يملون تسبيحى من ملائكتى . . وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولى .

ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى ــ أنه لا يملك كشفها أحد غيرى ؟

فمالى آراه بآماله معرضا عنى ؟ ومالى آراه لا هيا بسواى ؟

أعطيته بجودى ما لم يسألنى ، ثم انتزعته منه ، فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، افترانى أبدأ بالعطية قبل المسألة ، ثم أُسْأَلُ فلا أجيب سائلى ؟ أبخيل أنا ، فيُبْخِلُنى[3] عبدى ؟ أليس الدنيا والآخرة لى ؟ أوليس الرحمة والفضل بيدى ؟

---

(١) اسخت الأرض من تحته : أى خسفتها ــ يقال ساخت الأرض بهم : انخسفت

(٢) الأياس : انقطاع الرجاء .

(٣) أبخله : وجده بخيلا (المراجع)

أو ليس الجود والكرم لى ؟ أوليس أنا محل الآمال ؟ فمن ذا الذى يقطعها دونى ؟ وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سماواتى وأهل أرضى : أَمِّلُونى ، ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر ما أعطيت الجميع ــ ما نقص ذلك من ملكى عُضْو ذَرة[1] كيف ينقص ملك كامل ، أنا قيمه ؟

فيابؤس القانطين من رحمتى ، ويا بؤس من عصانى ولم يراقبنى ، وثبت على محارمى[2] ولم يَسْتَحِي منى .

قال رحمك الله : أمل هذا الحديث على ، فكتبه ، ثم قال : والله لا أكتب حديثاً بعده ، قلت : والأصل الذى يبنى عليه هذا المعنى هو تحقيق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى ؛ ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى فى ذكره فقال :

---

(١) الذرة ، وجمعها : الذر : صغار النمل (المراجع)

(٢) أى استحلها ثابتا مصرا ، عامدا متعمدا (المراجع)

الحكمة الأربعون

قال ابن عطاء الله

« إِنْ لَمْ تُحْسِنْ ظَنكَ بِهِ ؛ لِأَجْلِ حُسْنِ وَصْفِهِ[1] ــ فَحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ[2] ، لِأَجْلِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلاَّ حَسَناً ؛ وَهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ[3] إِلاَّ مِنَناً »[4] .[5]

قال ابن عباد :

حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين ، والناس فيه على قسمين : خاصة ، وعامة . فالخاصة حسنوا الظن به ، لما هو عليه من النعوت السنية ، والصفات العلية . والعامة حسنوا الظن به ، لما هم فيه من سبوغ النعم ، وشمول الفضل والكرم .

والتفاوت بين المقامين ظاهر ، ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب فى أحدهما

---

(١) لأجل حسن وصفه : أى لأجل ما هو عليه من النعوت السنية ، والصفات العلية .

(٢) فحسن ظنك به لأجل معاملته معك : أى من اسباغ النعم ، وشمول الفضل والكرم .

(٣) أسدى اليك : أعطاك . يقال اسدى اليه معروفا : أعطى وأولى .

(٤) مننا : نعما : جمع منة : وهى الاحسان والانعام .

(٥) جاءت بداية الحكمة فى شرح الشيخ « زروق » تحقيق الشيخ « عبد الحليم محمود » هكذا :
« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل جميل وصفه ــ حسن ظنك به ، لوجود معاملته معك » وفى شرح ابن عجيبة » هكذا :
« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل وصفه ــ حسن ظنك به ، لأجل معاملته معك » وفى شرح الشيخ « عبد المجيد الشرنوبى » هكذا :
« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل وصفه ــ حسن ظنك به ، لأجل معاملته معك » وكلها متقاربة فى المعنى .

ما يخاف فى الآخر ، لأن أرباب المقام الأول لما تحققوا فى المعرفة بالله تعالى واحتظوا بأنوار اليقين به ـــ أطمأنت قلوبهم ، وسكنت نفوسهم ، فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ، ولا مجال لسوء ظن .

وأرباب المقام الثانى لم يرتقوا عن نظرهم الى الأفعال ، وهى متلونة عليهم فى كل حال ، وعند وقوع بعض ما لا يلائمهم منها بهم ـــ ربما تضعف عن تحمل مكارهها ـــ قُوَى قلوبهم ، فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله ، وتحدث النفس بما يقتضى وجود هلع وجزع ؛ فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله عز وجل : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »[1] وما أشبهه ، وليقس النادر على الغالب .

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه : حسن الظن عبارة عن قطع الوهم ، أن يكون أو لايكون ، لأن الوهم قاتل[2] فمتى أعطيت أذنك للوهم ـــ هلكت وحدك ، وكذلك الاصغاء بالاذن الى الشيطان والنفس جنس واحد أ هـ .

قلت : وحسن الظن يُطْلَبُ من العبد فى أمر دنياه ، وفى أمر آخرته . أما أمر دنياه فأن يكون واثقا بالله تعالى فى ايصال المنافع والمرافق اليه من غير كدّ ولا سعى فيها ، أو سعى خفيف مأذون فيه ، ومأجور عليه ، بحيث لا يفوّته ذلك شيئا من نفل ولا فرض ؛ فيوجب له ذلك سكونا وراحة فى قلبه وبدنه ، فلا يستفزه طلب ، ولا يزعجه سبب .

وأما أمر آخرته ـــ فأن يكون قوى الرجاء فى قبول أعماله الصالحة ، وتوفية أجوره عليها فى دار الثواب والجزاء ، فيوجب له ذلك المبادرة ، لا متثال الأمر ، والتكثير من أعمال البر ، لوجود حلاوة واغتباط ، ولذاذة ونشاط .

وقد قال يحيى بن معاذ ، أوثق الرجاء ـــ رجاء العبد لربه ، وأصدق الظنون ـــ

---

(١) من آية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٢) هنا جملة أسقطناها من الأصل وجاءت هكذا (وهو لوقت ٧ ثان) ولم نتحقق معناها ، ومضمون الجملة مستقيم بدونها (المراجع)

حسن الظن بالله تعالى ، ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التى لا ينبغى للعبد أن يفارقه فيها ، أوقات الشدائد والمحن وحلول المصائب فى الأهل والمال والبدن لئلا يقع ، بسبب عدم ذلك ـ فى الجزع والسخط ، وسيأتى هذا المعنى فى كلام المؤلف رحمه الله ، وهو قوله :

« من ظن انفكاك لطفه عن قدره ـ فذلك لقصور نظره » . ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت . وقد جاء فى الخبر : « لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى » وفي حديث جابر : « من استطاع منكم ألا يموت الا وهو يحسن الظن بالله تعالى ـ فليفعل . ثم تلا هذه الآيه : « وذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ »[1]

ولأنه تعالى قال فيما يروى عنه : « أنا عند ظِنّ عبدى بى ، فَلْيَظُنَّ بى مَا شَاء » قال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه : وكان ابن مسعود يحلف بالله ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى الا أعطاه عز وجل ذلك ، لأن الخير كله بيده ، فاذا أعطاه حُسْنَ الظنّ به ـ فقد أعطاه ما يَظُنُّه ، لأن الذي حَسَّنَ ظَنَّهُ به ـ هو الذى أراد أن يُحَقِّقَه له أ هـ .

وقد روى عن أبى النصر بن حيان قال : خرجت عائدا ليزيد بن الأسود ، فلقيت واثلة بن الأسقع ، وهو يريد عيادته . قال : فدخلنا عليه ، وهو فى فراشه ، فلما رأى واثلة ، بسط يده ، وطفق يشير اليه ، فأقبل واثلة ، حتى جلس على الفراش ، وأخذ يزيد بن الأسود بِكَفَّىْ واثلة ، حتى جعلها على وجهه ، فقال له واثلة : أسألك عن شيء تخبرنيه ؟ قال : لا تسألنى عن شيء أعلمه الا أخبرتك به .

قال له واثلة : كيف ظنك بالله عز وجل ؟ قال : ظنى والله بالله حسن . قال : فأبشر ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، إن ظن خيرا ، وإن ظن شرا »

وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : « عاد رسول الله ﷺ

---

(١) الآية : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » ٢٣ من سورة فصلت . وتلاوة جابر للآية توحى بأنه يحذر مخاطبيه من سوء الظن بالله ، الذى اردى أصحابه (المراجع)

مريضا ، فقال له رسول الله ﷺ : كيف ظنك بربك ؟ قال يا سول الله : حسن الظن .

قال : فظن به ما شئت ، فان الله تبارك وتعالى عند ظن المؤمن به » .

وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : أن النبى ﷺ ، قال : « ان حسن الظن بالله ـــ من حسن عبادة الله »

قلت : والأخبار والآثار فى الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته ـــ أكثر من أن تحصى ومطالعتها مما يزيد المريد قوة فى هذا المقام . فمن أراد الشفاء فى ذلك عليه بمطالعة كتاب « الرجاء » من « قوت القلوب »[1] وكتاب « الإحياء »[2] قال بعضهم :

وما زلت أرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الصنع ما هو صانع

ثم بين رحمه الله تعالى الحالة التى بمنازلتها يتحقق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى ، وهو عكوف العبد بباب الله ، وتعلق قلبه بواحدانيته ، وأشار الى أن ذلك هو غاية النعيم ، ومنتهى الأمانى ، لا ما تتوهمه النفس ، وتطلبه من النعيم المعقول ، والأمنيات التى تفنى وتزول .

تعقيب :

قال رسول الله ﷺ : « حسن الظن من حسن العبادة »

فعلى العبد المؤمن أن يحسن الظن بالله تعالى فى أمر دنياه ، وفى أمر آخرته ، وقد سبق ايضاح ذلك .

وحسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين .

والناس فى هذا ثلاث درجات :

قسم أحب الله ، وأحسن الظن به من أجل نعمه واحسانه ، وهو مقام العامة .

وقسم أحب الله وأحسن الظن به ، من أجل وصفه ، وهو مقام الخاصة .

---

(١) قوت القلوب ـــ لأبى طالب المكى

(٢) الإحياء ـــ لأبى حامد الغزالى

وقسم أحب الله ، وأحسن الظن به ، من أجلهما معا : نعمه واحسانه ، ونعوته وصفاته ، وهو أفضل حالا منهما ، وهو مقام خاصة الخاصة . وفى هذا المقام الأخير تقول رابعة العدوية :

أحبك حبين : حبَّ الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
ولا حمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

الحكمة الحادية والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لاَ انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ ، وَيَطْلُبُ مَالاَ بَقَاءَ لَه مَعهُ ؛ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِى الصُّدُورِ »

قال ابن عباد :

هرب العبد من مولاه باقباله على شهواته ، ومتابعته هواه ، وذلك نتيجة عمى قلبه ، وجهله بربه ؛ لأنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وآثر الفانى الذى لا بقاء له ـــ على الباقى الذى لا انفكاك له عنه ، ولو كانت له بصيرة ـــ لآثر الباقى على الفانى ، ولفعل ما فعله سحرة فرعون ـــ لما آمنوا بربهم ، اذ لم يخفلوا بما وعدهم به فرعون من الاحسان والانعام والتقريب والاكرام ، ولم يكترثوا بما توعدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل ، بل قالوا : « لن نؤثرك على مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والَّذى فَطَرَنَا « الآية ، ثم قالوا : « واللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى »[1] .

فهؤلاء استنارت قلوبهم ، وشهدوا محبوبهم ، فكان منهم ما كان .

---

(١) « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة طه .

الحكمة الثانية والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ[1] ؛ فَتَكُونَ كَحِمارِ الرَّحَى[2] ، يَسيرُ والْمَكانُ[3] الَّذِى ارْتَحَلَ إِلَيْهِ ــ هُوَ الَّذِى ارْتَحَلَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ ارْحَلْ مِنَ الأَكْوَانِ إِلَى المُكَوِّن[4] . (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)[5] ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (فَمَنْ كَانَتْ هِجرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ[6] ــ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ[7] وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصيبُها أَو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ــ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَر إِلَيْهِ)[8] فَافْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ وَتَأَمَّلْ هَذَا الأَمْرِ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، (والسَّلامُ)[9] .

---

(١) الكون : هو الكائن والحاصل .

(٢) كحمار الرحى : أى الطاحونة ، والتشبيه هنا للتنفير .

(٣) يسير والمكان ... : أى يسير الليل والنهار وهو فى موضعه .

(٤) ارحل من الأكوان الى المكون : وذلك بأن تخلص عملك لمولاك وحده .

(٥) (وأن الى ربك المنتهى) : يعنى منتهى كل شىء بدأ ، لأنه هو المبدىء والمعيد الفعال لما يريد وهذا مقام العارفين .

(٦) فمن كانت هجرته الى الله ورسوله : أى نية وقصدا .

(٧) فهجرته الى الله ورسوله : أى وصولا : وفى هذا المعنى الارتحال من الأكوان الى المكون ، وهو المطلوب من العبد .

(٨) فهجرته الى ما هاجر اليه : يعنى البقاء مع الأكوان ، وهو المنهى عنه .

(٩) (والسلام) لم تذكر هذه الكلمة فى آخر الحكمة فى شرح ابن عباد ، ولكنها وردت فى غيرها من الشروح . قال ابن عجيبة : ختمت الحكمة بالسلام ، لأنها تدل على سفر القلب من شهود الخلق الى شهود الخالق ، فناسب ختمها بالسلام ، لما فيه من ذكر السلامة .

قال ابن عباد :

العمل على طلب الجزاء والدرجات ، أو نيل الرتب العلية ، والمقامات ـــ نقصان فى الحال ، وشوب فى اخلاص الأعمال ، وهو معنى الرحيل من كون الى كون ، وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس فى أن تحصل لها رتبة ، أو تنال بسعيها موهبة ، وهذه كلها من الأكوان والأكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا ، وان كان بعضها أنوارا ، وتمثيله بحمار الروحى مبالغة فى تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار ، وتلطف فى دعائهم الى حسن الأدب بين يدى الواحد القهار ، حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى : « وأن إلى ربك المنتهى »[1]

فيكون انتهاء سيرهم اليه ، وعكوف قلوبهم عليه ، وتكون أعمالهم اذ ذاك وفاء بحق العبودية ، وقياما بحقوق الربوبية فقط ، من غير التفات الى النفس على أى حالة تكون . فهذا هو تحقيق الاخلاص الكائن من مشاهدة التوحيد الخاص ، جعلنا الله من أهله بمنه وفضله ، إنه على كل شىء قدير (وانظر الى قوله ﷺ : « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ـــ فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ـــ فهجرته الى ما هاجر اليه » فافهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل هذا الأمر أن كنت ذا فهم) .

فى هذا الحديث النبوى تنبيه على المعنى الذى ذكره ، وموضع الاعتبار والتأمل هو ـــ والله أعلم ـــ قوله فى القسم الثانى ـــ فهجرته الى ما هاجر اليه ، أى لا نصيب له من الوصول والقرب الذى حظى به من هاجر الى الله ورسوله ، وهو قوله : فهجرته الى الله ورسوله ، وهذا من باب حصر المبتدأ فى الخبر ، كما تقول : زيد صديقى أى لا صديق له غيرى .

وكأنه ـــ ﷺ ـــ نبه فى القسم الثانى بالدنيا التى يريد أن يصيبها ، والمرأة التى يريد أن يتزوجها ـــ على حظوظ النفس ، والوقوف معها ، والعمل عليها كائنة ما كانت

---

(١) آية ٤٢ من سورة النجم .

وإن كان ظاهرها طلب الحظ العاجل ، فقوله : فهجرته الى الله ورسوله ـــ هو معنى الارتحال من الأكوان الى المكون ، وهو المطلوب من العبد وهو مصرح به غاية التصريح .

وقوله : فهجرته الى ما هاجر اليه ـــ هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها ، وهو الذى نهى عنه وهو مشار به غير مصرح .

فليكن المريد عالى الهمة ، والنية ، حتى لا يكون له التفات الى غيرٍ ، ولا كونٍ البتة ولقد أحسن الشاعر فى قوله :

وكل ما خلق الله وما لم يخلق محتقر فى همتى كشعرة فى مفرق[1]

قال رجل لأبى يزيد رضى الله تعالى عنه : أوصنى . فقال له : إن أعطاك من العرش الى الفرش ، فقل له : لا أنت أريد .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : لو خيرت بين ركعتين ، ودخول الفردوس ـــ لاخترت الركعتين ، لأنى فى الفردوس بحظى ، وفى الركعتين بربى .

وقال الشبلى رضى الله تعالى عنه : احذر مكره ، ولو فى قوله : « وكلوا وأشربوا »[2] يريد : لا تستغرق فى الحظ ، ولتكن فى كل شىء به ، لا بنفسك ، فقوله تعالى : « وكلوا واشربوا » وان كان ظاهره اكراما وانعاما ـــ فإن فى باطنه ابتلاء واختبارًا ؛ حتى ينظر من هو معه ، ومن هو مع الحظ .

---

(١) الشاعر هو المتنبى ، وهذان بيتان من ثلاثة هى .

أى عظيم أتقى أى المعالى أرتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرق

وعجيب أن يثنى المؤلف ـــ ابن عباد على هذا القول الذى كان فى عرف النقاد مأخذا وغلوا أخلاقيا ـــ على المتنبى ، لأن مما خلق الله (الرسول خير الخلق والملائكة ، وأشرف الخلائق) وكل ذلك لا وجه لا حتقاره ، لا اعتقادا ولا تصوفا (المراجع)

(٢) الأعراف / ٣١

الحكمة الرابعة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« رُبَّمَا كُنْتَ[1] مُسِيئاً[2] ، فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ[3] مِنْكَ ــ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً »

قال ابن عباد :

هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ما ذكره ، وصحب من هو دونه فى الحال ، وهى استحسانه لما هو عليه ، فيؤديه ذلك الى رضاه ، عن نفسه ورؤيته لاحسانها ، وهو أصل كل شر كما تقدم .[4]

تعقيـــب

ترشد الحكمة الى أن صبحتك من هو دونك ــ شر محض ، لأنها تغطى عنك عيوبك ، وتبين لك كمالك ، فتوجب لك حسن الظن بنفسك ، فتعجب بأعمالك ، وتقنع بأحوالك ، وترضى عن نفسك ، والرضا عن النفس ، ورؤية احسانها ــ أصل كل شر .أما صحبتك لمن هو أحسن حالا منك ــ فتجعلك لا ترى من نفسك الا التقصير ، وفى ذلك خير كثير .

---

(١) رب : هنا : معناها التكثير .

(٢) مسيئا : يقال : أساء فلان : أى أتى بما يسوء ، وأساء الشيء : لم يحسن . وأساء الى فلان : الحق به ما يسيئه .

(٣) الاحسان : يقال أحسن : فعل ما هو حسن ، وفى القرآن الكريم « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »

(٤) يشير ابن عباد هنا الى الحكمة السابقة وهى : « لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله » .

الحكمة الخامسة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ ، وَلاَ كَثُرَ عَمَلٌ بَرزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ »

قال ابن عباد :

مقادير الأعمال على حسب قلوب العمال ، فما صدر عن الزاهدين فى الدنيا من عمل طاعة ، وإن كان قليلا فى الحس ــ فهو كثير على التحقيق ، وما صدر عن الراغبين فيها من عمل بر ــ وان كان كثيرا فى الحس ــ فهو قليل على التحقيق ، وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى اخلاص أعمالهم من مراآة الناس ، والتصنع لهم ، وطلب الأعواض الدنيوية عليها منهم ، لأنهم زهدوا فيها ، فيتحصل لهم قبول أعمالهم ، فيتوفر لهم قليلها بحسب ذلك ويكثر . والراغبون فى الدنيا تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم القادحة فى اخلاصهم ، بسبب رغبتهم فى الدنيا ، فلا تقبل منهم ، فيقل الكثير من أعمالهم ، لوجود النقصان فيها .

وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل ، فانه لا يقل عمل مع التقوى . وكيف يقل عمل يتقبل !؟

وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة ، لما تضمنه من وجود الاخلاص ، وعدم رياء الناس ، فقيل فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا »[1] قيل : يعنى خالصا ، فسمى الخالص كثيرا ، وهو ما أخلصت فيه النية ،

---

(١) آية ٤١ من سورة الأحزاب .

لوجه الله العظيم ، ووصف ذكر المنافقين بالقلة ، لما اشتمل عليه من عدم الاخلاص ، ووجود رياء الناس فقال تعالى : « يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا »[1] يعنى : غير خالص .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ـــ أنه قال : ركعتان من زاهد عالم ـــ خير من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا .

وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيرا منكم ، قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد منكم فى الدنيا . وعن بعض الصحابة أيضا ، قال : تابعنا الأعمال كلها ـــ فلم نر فى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : سألت معروفا الكرخى ـــ رضى الله تعالى عنه ـــ عن الطائعين لله ، بأى شيء قدروا على الطاعة ؟ فقال : باخراج الدنيا من قلوبهم ، ولو كان شيء منها فى قلوبهم ـــ ما صلحت لهم سجدة .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله تعالى عنه : شكا بعض الناس لرجل من الصالحين : أنه يعمل أعمال البر ، ولا يجد حلاوة فى قلبه ، فقال : لأن عندك بنت ابليس ، وهى الدنيا ، ولابدّ للأب أن يزور ابنته فى بيتها ، وهو قلبك ، ولا يؤثر دخوله الا فسادا .

وكان أبو محمد بن سهل ـــ رضى الله تعالى عنه ـــ يقول : يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ، ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله ، قال : ولا يُرَى فى القيامة أحدٌ أفضل من ذى زهد عالم ورع .

تعقيـــــب :

العمل القليل من الزاهد ليس بقليل ، وذلك لفراغ قلبه ، وسلامة وقته ، حضوره فى عبادته ، والعمل الكثير من غير الزاهد ليس بكثير ، لمزاحمته بالاضداد ،

---

١) من آية ١٤٢ من سورة النساء .

لأن حقيقة الزهد ـــ برودة الدنيا على القلب . جاء فى الخبر : ليس الزهد بتحريم الحلال ، ولا باضاعة المال ، انما الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك .

وفى بعض الأخبار : أن سيدنا عيسى عليه السلام ـــ مر برجل نائم ، والناس يتعبدون ، فقال له عيسى عليه السلام : قم فتعبد مع الناس ، فقال : تعبدت يا روح الله ، فقال له : وما عبادتك ؟ قال : تركت الدنيا لأهلها ، فقال له : نم ، نعمت العبادة هذه .

الحكمة السادسة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« حُسْنُ الْأَعْمَالِ[1] ــ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ[2] ، وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ ــ مِنَ التَّحَقُّقِ[3] فِي مَقَامَاتِ الْإِنْزَالِ » .

قال ابن عباد :

حسن الأعمال ــ توفيقها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى ، لا لطلب حظ عاجل ، ولا ثواب آجل .

وحسن الأحوال ــ أن تكون سالمة من العلل والدعاوى ، موسومة بسمة الصدق . والتحقق فى مقامات الانزال ــ هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف ، بحيث ينتفى عنه كل شك وريب .

وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض ، وهو معنى ما يقوله الإمام أبو حامد رضى الله تعالى عنه : لا بد فى كل مقام من مقامات اليقين : من علم وحال وعمل . فالعلم ينتج الحال ، والحال ينتج العمل . وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ــ نوع استدلال على ما قاله فى الزاهد والراغب .

---

(١) الأعمال : حركة الجسم بالمجاهدة . الأحوال : حركة القلب بالمكابدة . المقامات سكون القلب بالطمأنينة . حسن الأعمال : أى خلوها عما يعوقها عن القبول من الرياء ونحوه .

(٢) نتائج حسن الأحوال : أى القائمة بالقلوب من الزهد فى الدنيا ، والاخلاص لله

(٣) من التحقق : أى التمكن

فى مقامات الانزال : أى المقامات التى تنزل فى قلوب العارفين . وهى كناية عن المعارف الإلهية .

تعقيـــب :

حركة القالب ـــ تدل على صلاح القلب أو فساده ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« ان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت ـــ صلح الجسد كله ، و اذا فسدت ـــ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

فاذا تحقق القلب بالزهد مثلا ، وصار له حالا أو مقاما ـــ ظهر ذلك على جوارحه من الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، وعدم التلهف والجرى وراء الأسباب .

وقد قيل : حسن أدب الظاهر ـــ عنوان حسن أدب الباطن .

والرسول ﷺ يقول : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

الحكمة السابعة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَتْرُكِ الذِّكْرَ[١] ، لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللهِ فِيهِ[٢] ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ[٣] أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ[٤] مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ ــ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ[٥] ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ ــ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وجُوُدِ حُضورٍ[٦] وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ــ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ[٧] ، ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾[٨] » .

قال ابن عباد :

الذكر أقرب الطرق الى الله تعالى ، وهو عَلَمٌ على وجود ولا يته ، كما قيل : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر ــ فقد أعطى المنشور ، ومن سلب الذكر ــ فقد عزل . قال الشاعر :

---

(١) لا تترك الذكر : يعنى : لازمه ، وداوم عليه .

(٢) لعدم حضورك مع الله فيه . بأن كان قلبك مشغولا بالوساوس الشيطانية والأغراض الدنيوية .

(٣) لأن غفلتك عن وجود ذكره ــ أشد .. لأن غفلتك عنه ــ اعراض عنه بالكلية وفى ذكره اقبال عليه بوجه ما .

(٤) فعسى أن يرفعك : أى يرقيك . ذكر مع وجود غفلة : أى غفلة عنه سبحانه .

(٥) ذكر مع وجود يقظه : أى تيقظ قلب .

(٦) ذكر مع وجود حضور : أى حضور فى حضرة الاقتراب ، بأن يدخل القلب حضرة الرب ، فيراقبه ، ولا يغفل عنه .

(٧) غيبة عما سوى المذكور : وهو الله تعالى . وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ، أو يخرج من غير قصد ، بل يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به ، لان صاحبه فى مقام الحب .

(٨) « وما ذلك على الله بعزيز » ــ آية ١٧ من سورة فاطر ، والمعنى ليس ذلك بممتنع فى قدرته ، ولا ببعيد عن كرمه .

والذكر أعظم باب أنت داخله لله ، فاجعل له الانفاس حراسا

قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : الذكر عنوان الولاية ، ومنار الوصلة ، وتحقيق الارادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شيء ، وجميع الخصال المحمودة ــ راجعة الى الذكر ، ومنشؤها عن الذكر ، وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى ، ولم لم يرد فيه الا قوله تعالى فى كتابه العزيز : « فاذكرونى أذكركم »(١) ، وقوله عز وجل فيما يروى عنه رسول الله ﷺ : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، ان ذكرنى فى نفسه ــ ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ــ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلّى شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلّى ذراعا ــ تقربت منه باعا ، وإن أتانى يمشى ــ أتيته هرولة » ــ لكان فى ذلك اكتفاء وغُنْيَةٌ ، وهذا الحديث متفق على صحته .

قالوا : ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت ، فما من وقت الا والعبد مطلوب به : إما وجوبا وإما ندبا ، بخلاف غيره من الطاعات .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ــ غير الذكر ، فانه لم يجعل له حدا ينتهى اليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه الا مغلوبا على عقله ، وأمرهم بذكره فى الأحوال كلها ، فقال عز من قائل : « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم(٢) وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا »(٣) أى بالليل والنهار ، وفى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، وفى الصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه : الذكر الكثير ألاّ ينساه أبدا ، وروى عن رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله ، حتى يقولوا مجنون » .

فينبغى للعبد أن يستكثر منه فى كل حالاته ، ويستغرق فيه فى جميع أوقاته ،

---

(١) من آية ١٥٢ من سورة البقرة .

(٢) من آية ١٠٣ من سورة النساء .

(٣) آية ٤١ من سورة الأحزاب .

ولا يغفل عنه ، وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه ، فإن تركه له ، وغفلته عنه ـــ أشد من غفلته فيه ، فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه ، وان كان غافلا فيه ، فلعل ذكره ، مع وجود الغفلة ـــ يرفعه الى الذكر مع وجود اليقظة ، وهذا نعت العقلاء .

ولعل ذكره مع وجود اليقظة ـــ يرفعه الى الذكر مع وجود الحضور ، وهذه صفة العلماء .

ولعل ذكره مع وجود الحضور ـــ يرفعه الى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور ، وهى مرتبة العارفين المحققين من الأولياء .

قال تعالى : « واذكر ربك اذا نسيت[1] أى اذا نسيت مادون الله ، عند ذلك تكون ذاكرا لله ، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ، ويكون العبد محوا فى وجود العيان ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

ما ان ذكرتك الا هم يلعننى ... سرى وقلبى وروحى عند ذكراك
حتى كأن رقيبا منك يهتف بى ... اياك ويحك والتذكار اياك
أما ترى الحق قد لاحت شواهده ... وواصل الكل من معناه معناك

وقال الواسطى مشيرا الى هذا المقام : الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه[2]

وقال ابو العباس بن البناء فى كلام ذكره على مقدمة كتاب أبى العزّ تقى الدين بن المظفر الشافعى ، وهو كتاب « الاسرار العقلية فى الكلمات النبوية » : ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله : ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جل ذكره ، وهذا هو الذكر الخفى ، عند المتصوفة على الاستمرار والتمكن فى الاسرار .

وأما قولهم : حتى يتمكن الذاكر الى حالة يستغرق بها عن الذكر ـــ فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد . بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم .

---

(١) من آية ٢٤ من سورة الكهف .

(٢) يريد أن حقيقة ذات الله غير حقيقة الذكر الذى يفعله العبد الذاكر : وقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا شديد الاختصار والإيجاز حين قال « لأن ذكره سواه » (المراجع)

وبيان ذلك : أن يكون القلب عند الذكر فى الذكر فارغا من الكل ، فلا يبقى فيه غير الله جل ذكره،فيصير القلب بيت الحق ، ويمتلىء منه ، فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبير ، وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به ، فإن بطش هذا الذاكر ـــ كان يده الذى يبطش بها ، وإن سمع ـــ كان سمعه الذى يسمع به قد استولى المذكور العلى على الفؤاد، فامتلكه ، وعلى الجوارح ، فصرفها فيما يرضيه ، وعلى الصفات من هذا العبد ، فقلبها كيف شاء فى مرضاته ، فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف ، وتنبعث الأعمال بالطاعات : نبشاطا ولذة من غير كلال .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[1] إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[2] وقد وصف الله قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك فى قوله الحق : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا »[3] أى فارغا من كل شىء الا من ذكر موسى ، فكادت أن تبدى به من غير قصد منها لذكره ولا تدبير . بل كان تركها للتصريح بذكره ـــ صبرا لما ربط الله على قلبها ؛ لتكون من المؤمنين بما أوحى اليها من قبل فى شأن موسى ، وبأنه من المرسلين .

وبذلك يندفع الإشكال الذى ذكره أبو العز ، ووصفه بالعظم ، وهو اجتماع الضدين فى بادىء الرأى : وهما الذكر والغفلة عن الذكر .

وهذه المعالم والمراقى لا يعرف حقائقها الا السالكون وجدانا ، والعلماء ايمانا وتصديقا ، فاياك التكذيب بآيات الله ، فتكون من الصم البكم فى الظلمات .

ولما كان المذكور لا يجوز عليه وصف الفقد والعدم ، ولا يمنعه حجاب ، ولا يحويه مكان ولا يشتمل عليه زمان ، ولا يجوز عليه الغيبة بوجه ، ولا يتصف بحوادث المحدثين ، ولا يجرى عليه صفات المخلوقين ـــ فهو حاضر عينا ومعنى ، وشاهد سرا ونجوى ، إذ هو القريب من كل شىء ، وأقرب الى الذاكر له من نفسه ، من حيث الا يجاد له ، والعلم به ، والمشيئة فيه ، والقدرة والتدبير له ، والقيام عليه .

---

(١) آية ٤ من سورة الجمعة

(٢) آية ١٢٨ من سورة النحل

(٣) من آية ١٠ من سورة القصص

خلق الخليقة ، فلا تلحقه أوصافها ، وأوجد الأعداد ، فلا تحصره معانيها ، سبحانه هو العلى الكبير ، انتهى كلام الشيخ أبى العباس رحمه الله فى معنى المقام الثالث من مقامات الذكر ، وهو فى غاية الحسن والتحقيق مشيرا الى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق ، فلا ينبغى أن يستبعد العبد الوصول الى هذا المقام الكريم ، فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم ، فعلى العبد القيام بحق الأسباب ، ومن الله رفع الحجاب .

الحكمة الثامنة والأربعون

قالة ابن عطاء الله :

« مِنْ عَلاَمَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ ــ عَدَمُ الْحُزنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوافِقَاتِ ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ الزِّلاَّتِ » .

قال ابن عباد :

القلب اذا كان حيا بالايمان ــ حزن على ما فاته من الطاعات ، وندم على ما فعله من الزلات ، ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات ، ويوفق له من اجتناب المعاصى والسيئات . وقد جاء فى الخبر : « من سرته حسنته ، وساءته سيئته ــ فهو مؤمن » .

فإن لم يكن العبد بهذا الوصف ، وعَدِمَ الحزنَ على ما فاته ، والندم على ما أتاه ــ فهو ميت القلب ، وانما كان ذلك من قِبَلِ أن أعمال العبد الحسنة والسيئة ــ علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد ، أو سخطه عليه .

فاذا وفق الله تعالى عبده للصالحات ــ سره ذلك ، لأنه علامة على رضاه عنه ، وغلب حينئذ رجاؤه ، واذا خذله ، ولم يعصمه ــ فعمل بالمعاصى ــ ساءه ذلك ، وأحزنه ، لأنه علامة على سخطه عليه ، وغلب حينئذ خوفه . والرجاء يبعث على الاجتهاد فى الطاعات . وليس من مقتضاه تركها ، وعدم الحزن على ما فاته منها أمنا واغترارا .

والخوف يبعث على المبالغة فى اجتناب المعاصى والسيئات ، وليس من مقتضاه فعلها وترك الندم عليها اياسا[1] وقنوطا .

---

(١) إياساً : أى يأسا .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ : إذ أتاه آت ، فلما حاذانا ، ورأى جماعتنا ــ أناخ راحلته ومشى الى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أوضعت راحلتى من مسيرة تسع ، فسيرتها اليك ستا ، وأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وأنصبت راحلتى لا سألك عن إثنتين ، أسهرتانى .

فقال له النبى ﷺ : من أنت ؟ قال زيد الخيل : قال : بل أنت زيد الخير . سل ، فرب معضلة قد سئلت عنها . قال : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد ، فقال له النبى ﷺ : بخ بخ[1] !كيف أصبحت يا زيد ؟ قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وأحب أن يعمل به ، واذا فاتنى حننت اليه ، واذا عملت عملا ، قل أو كثر ــ ايقنت بثوابه .

قال هى هى بعينها يا زيد ، ولو أرادك الله للأخرى ــ هيأك لها ، ثم لا يبالى فى أى واد هلكت ، فقال زيد : حسبى حسبى ، ثم ارتحل ، ولم يثبت .

---

(١) بَخْ بَخْ ، بَخٍ بَخٍ : تقال عند الرضا والاعجاب بالشىء ، أو المدح ، أو الفخر .

الحكمة التاسعة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ يَعْظُمِ الذَّنْبُ عِنْدَكَ ــ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ ــ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ ».

قال ابن عباد :

عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين : أحدهما : أن يَعْظُمَ عنده عظمةً تحمله على التوبة منه ، والاقلاع عنه ، وصدق العزم على ألا يعود الى مثله ، فهذه عظمة محمودة ، وهى من علامات ايمان العبد ، كما قلنا ، قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وأن الفاجر[1] يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، قال به هكذا فأطاره[2] .

ويقال : إن الطاعة كلما اسْتُصْغِرت ــ كَبُرت عند الله ، وإن المعصية كلما اسْتُعْظِمتْ صَغُرت عند الله تعالى .

والثانى : أن يَعْظُم عنده عظمة توقعه فى اليأس والقنوط ، وتؤديه الى سوء الظن بالله تعالى ، فهذه عظمة مذمومة ، قادحة فى الايمان ، وهى شر عليه من ذنوبه .

وسبب ذلك جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم ، ووقوفه مع نفسه ، وقياسه بعقله وحدسه ، ولو كان عارفا بالله حق المعرفة ــ لا ستحقر ذنوبه فى جنب

---

(١) وفى رواية : والمنافق يرى ذنوبه .

(٢) قال به هكذا : أى فعل به هكذا ، وأشار بيده .

كرمه وفضله ، فأى قدر للعبد أو قيمة ؛ حتى يقع فى ذنب لا يسعه عفو ربه ، ويكبر عليه أن يغفره !؟

قال فى التنوير : واعلم أنه لا بد فى مملكته من عباد هم نُصُبُ الحِلْمِ ، ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ، ووقوع الشفاعة .

وأفهم قوله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا ـــ لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله تعالى ، فيغفر لهم » .

وقوله ﷺ : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »

وجاء رجل إلى الأستاذ أبى الحسن قدّس الله سره العزيز ، فقال : يا سيدى كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت ، وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا ، فقال : يا هذا ! كأنك تريد ألا يعصى الله تعالى فى مملكته ! من أحب ألا يعصى الله فى مملكته ـــ فقد أحب ألا تظهر مغفرته ! وألا تكون شفاعة رسول الله ﷺ له ! وكم من مذنب ـــ كثرت إساءته ومخالفته ـــ وجبت له الرحمة من ربه ، فكان له راحما ، وبقدر إيمانه وان عصا عالما . أ هـ .

فلا ينبغى للعبد أن يستعظم ذنبه ؛ استعظاما يؤدّيه الى أن يلقى بيديه اياسا من روحه ، وقنوطا من رحمته ، وسوء ظن به .

بل عليه أن يتوب الى ربه منه ، ويرجع اليه عنه ، ويعلم حكمة الله تعالى فى تسليطه عليه ، وتخليته بينه وبينه .

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ : « لولا أن الذنب خير للمؤمن من العُجْبِ ـــ ما خلّى الله تعالى بين مؤمن وبين ذنب أبدا » .

فنبهك بهذا على أن الذنب مانع من وجود العجب الذى هو حجاب بين العبد وبين مولاه ، لأن صاحبه ناظر الى نفسه ، لا الى ربه ، مستعظم لطاعته وعبادته ، ملاحظ لذلك ، ومساكن له ، بخلاف ذلك الذنب ، لأنه يوجب له الخوف والحذر ، واللجأ الى الله تعالى ، والفرار اليه من نفسه .

والعُجْبُ يصرف العبد عن الله تعالى ، والذنب يصرفه اليه ، والعُجْبُ يقبل به على نفسه ، والذنب يقبل به على ربه ، والعجب يؤديه الى الاستغناء ، والذنب يؤديه

الى الافتقار ، وأحب أوصاف العبد الى الله عز وجل ــ افتقاره الى مولاه ، وأشرف أحوال المؤمن ــ ما يرده اليه ، ويقبل به عليه .

تعقيـــب :

لما افادت الحكمة السابقة أن الندم على المعصية ــ فيه حياة للقلب ــ أشارت هذه الحكمة إلى أن المراد بالندم ــ هو الندم الذى لا يؤدى بصاحبه الى اليأس من رحمة الله . إذ إن المطلوب من المسلم أن يكون خائفا راجيا ، تحقيقا لقوله تعالى : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » من آية ٥٧ من سورة الاسراء وقوله تعالى : « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا » (من آية ٩٠ من سورة الأنبياء) .

فمن عرف ربه ــ استصغر ــ فى جنب كرم الله ــ ذنبه . قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (من آية ١١٦ من سورة النساء) . وفى الحديث الصحيح : « أن العبد اذا أذنب الذنب ، فقال : يارب ، اغفر لى . قال الله تعالى : اذنب عبدى ذنبا ، فعلم أن له ربا ، يغفر الذنب ، ويأخذ به ، أشهدكم بأنى قد غفرت له . . الحديث » .

ولله در القائل :

ذنوبى ــ إن فكرت فيها ــ كثيرة ... ورحمة ربى ــ من ذنوبى ــ أوسع
هو الله مولاى الذى هو خالقى ... وإنى لـه عبـد : أذل وأخضع
وما طمعى فى صالح قد عملته ... ولكننى ــ فى رحمة الله ــ أطمع

الحكمة الخمسون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ ، وَلاَ كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ »

قال ابن عباد :

إذا ظهرت الصفات العلية ـــ بطلت أعمال العاملين ، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته ـــ بطلت حسناته ، وعادت صغائره كبائر .

وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه ـــ اضمحلت سيئاته ، ورجعت كبائره صغائر . قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : إن وضع عليهم عدله ـــ لم تبق لهم حسنة ، وإن نالهم فضله ـــ لم تبق لهم سيئة .
ومن دعائه رضى الله تعالى عنه : إلٰهى ! إن أحببتنى ـــ غفرت سيئاتى ، وإن مقتنى ـــ لم تقبل حسناتى .

وما أحسن قول سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه فى دعائه ومناجاته : واجعل سيآتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ؛ فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب منك .

وسيأتى من مناجاة المؤلف رحمه الله فى مثل هذا المعنى قوله : الٰهى ! كم من طاعة بنيتها ، وحالة شيدتها ـــ هدم اعتمادى عليها عدلك . بل أقالنى منها فضلك .

تعقيـــب

اذا قابلك الحق ـــ سبحانة وتعالى بعدله ـــ لم تبق لك صغيرة ، وعادت

صغائرك كبائر . واذا واجهك الحق بفضله وكرمه واحسانه ـــ لم تبق لك كبيرة ، وعادت كبائرك صغائر . فكل الذنوب كبائر اذا قابل العبد عدل الله تبارك وتعالى ، وكل الكبائر صغائر اذا قابل العبد فضل الله ، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية .

وفيما أوحى الله إلى بعض أنبيائه : قل لعبادى الصديقين : لا يغتروا ؛ فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى ـــ أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا يقنطوا؛فإنى لا يتعاظمنى ذنب أغفره لهم .

وقال تعالى : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » (آيه ٤٩ من سورة الحجر) وقال عز وجل :

« وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب »

(آيه ٦ من سورة الرعد)

الحكمة الحادية والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ عَمَلَ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ[1] مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ[2] وَيُحْتَقَر عِنْدَكَ وُجُودُهْ »[3]

قال ابن عباد :

فى النسخ الموجودة بأيدينا لا عمل أرجى للقلوب ، ومعناه على هذا الوجه : أى العمل الموصوف بهذه الصفة ـــ لا يلتفت اليه القلب ، ولا يعتبره ، وفى عدم التفاته واعتباره صلاحه ، وتحرره من رق رؤيته ، فيبقى حينئذ مع ربه ، لا مع عمله ، ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره : لا عمل أرجى لصلاح القلوب ، أو مافى معناه .

وسيأتى من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى ، وهو قوله : قطع السائرين له ، والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم ، وشهود أحوالهم الى آخره .

والغالب على الظن أن الذى قصده المؤلف رحمه الله وذكره ـــ انما هو لفظ القبول فغلط الناسخ فقلب حروفه ، ولا يحتاج فى هذا الى حذف ، وتقريره على هذا الوجه أن تقول :

---

(١) لا عمل أرجى للقلوب : أى لا عمل من أعمال البر أكثر رجاء لاصلاح القلوب .

(٢) من عمل يغيب عنك شهوده : أى بأن تشهد أن الذى وفقك له هو الله تعالى ، ولولاه ما صدر منك .

(٣) يحتقر عندك وجوده : أى بألا تعتمد عليه فى تحصيل أمر من الأمور ، كالوصول الى الله ، وذلك لرؤيتك التقصير فيه .

سلامة العمل من الآفات شرط فى قبوله ، لأن صاحبه مُتَّقٍ لله تعالى[1] .

وقد قال عز من قائل : « إنما يتقبل الله من المتقين . »[2] وإنما يسلم العمل من الآفات باتهام النفس فى القيام بحقه ، ورؤية تقصيره فيه ، فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ، ويحتقر عنده وجوده ، فلا يساكنه ، ولا يعتمد عليه .

فإن لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظرا إليه ، ومستعظما له ، غائبا عن شهود منة الله تعالى عليه فى توفيقه له ـــ أوقعه ذلك فى العجب ؛ فحبط لذلك عمله ، وخاب سعيه .

قال أبو سليمان رضى الله تعالى عنه : ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبته .

وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنه : كل شىء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك ـــ فذلك دليل على أنه لا يقبل منك ؛ لأن القبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك ـــ فذلك دليل على القبول :

وقد سئل بعض العارفين : ما علامة قبول العمل ؟ قال : نسيانك إياه ، وانقطاع نظرك عنه بالكلية ، بدلالة قوله تعالى « إليه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ[3] . قال : فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل ـــ ألا يبقى عندك منه شىء ، فإنه إذا بقى فى نظرك منه شىء ـــ لم يرتفع اليه ، لبينونة بين عنديتك وعنديته .

فينبغى للعبد إذا عمل عملا أن يكون نَسْيًا مَنْسِياً ، بما ذكرناه من اتهام النفس ، ورؤية التقصير ؛ حتى يحصل له قبوله .

---

(١) فى بعض النسخ « لا عمل أرجى للقبول » والمعنى : لقبول الله له : يقول « ابن عجيبة : لفظ القلوب أوفق للسياق ، إذ الكلام كله فى موت القلوب وحياتها .

(٢) من آية ٢٧ من سورة المائدة .

(٣) من آية ١٠ من سورة فاطر .

الحكمة السادسة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« النُّورُ جُنْدُ الْقَلبِ[1] ، كَما أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفسِ[2] ، فإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ[3] — أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ[4] ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلَمِ[5] والْأَغْيَارِ »[6]

قال ابن عباد :

نور التوحيد واليقين ، وظلمة الشرك والشك — جندان للقلب ، والنفس ، والحرب بينهما سجال ، فاذا أراد الله نصرة عبده — أمد قلبه بجنوده ، وقطع عن نفسه مدد جنودها ، واذا أراد خذلان عبده — فعل العكس .

فاذا مال القلب الى العمل بأمر محمود مؤلم فى الحال ، متلذذ به فى المآل ، ومالت النفس الى العمل بأمر مذموم متلذذ به فى الحال ، مؤلم فى المآل ، وتنازعا وتقاتلا سارع النور — الذى هو من أمر الله تعالى ورحمته — الى نصرة القلب ، وبادرت الظلمة التى هى من وساوس الشيطان ، ولمته[7] — الى نصرة النفس ، وقام صف القتال بينهما .

---

(١) النور جند القلب : أى يَتوصَّل به القلب الى ما يقصده ، ويتوجه اليه ، وهو حضرة الرب .

(٢) الظلمة جند النفس : أى تتوصل بها الى مقصودها ، وهو الشهوات والأغراض العاجلة

(٣) ينصر عبده : أى يعينه على نفسه ، وقمع شهواتها .

(٤) أمده بجنود الأنوار : أى بجنود هى الأنوار ، أو الانوار الشبيهة بالجنود .
ومعنى « أمده » أمد قلبه . وفى رواية الشيخ « زروق » أيده .

(٥) قطع عنه مدد الظلم : أى قطع عنه مددا : هو الظلم : بفتح اللام : جمع ظلمة .

(٦) الظلم والأغيار : هذا العطف من عطف المرادف فالظلم هى الأغيار .

(٧) اللَّمة : الشدة ، ويقال أصابت فلان من الجن لمَّة ، وهو المس والشىء القليل .

فإن سبقت للعبد من الله تعالى سابقة السعادة ـــ اهتدى القلب بنور الله تعالى واستهان بالعاجلة ، ورغب فى الآجلة ، وعمل القلب بما مال اليه ، وإن آله فى الحال ، لما يرجوه من التنعم به فى المآل ، وإن سبقت له من الله الشقاوة ـــ والعياذ بالله ـــ ذهل القلب عن النور ، وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل ، واغتر بلذة العاجل ، وعمل بما مالت اليه نفسه ، وإن آله فى المآل ، لما يحصل لها من لذة الحال ، وعند التقاء الصفين ، والتحام القتال بين الجندين ـــ لا سبيل للعبد الا فزعه الى الله تعالى ، ولياذه به ، وكثرة ذكره ، وصدق توكله عليه ، واستعاذته من الشيطان الرجيم .

وهذه العبارات الخمس[1] من قوله : « انما أورد عليك الوارد ، لتكون به عليه واردا » الى هنا ـــ تفنن فيها صاحب الكتاب ، وكررها بألفاظ مختلفة ، والمعانى فيها متقاربة ، وهذه عادته فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، رضى الله تعالى عنه .

تعقيـــب

النور جند القلب ، فهو يتوصل به الى ما يقصده ، ويتوجه اليه ، وهو حضرة الرب سبحانه وتعالى ، والظلمة التى هى من وساوس الشيطان ـــ جند النفس الأمارة بالسوء ، والحرب بينهما سنجال ، فاذا أراد الله نصر عبده ـــ أمد قلبه بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار ، واذا أراد خذلان عبده ـــ أمد نفسه بالأغيار ، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار . فعلى العبد أن يفزع الى ربه عند التقاء هذين الجندين : جند الظلم ، وجند الأنوار ، ويسأل الله الاعانة على هذه النفس الأمارة بالسوء ـــ الى أن يصل الى الله تعالى ، فينقطع حينئذ حكم النفس ، وتصير مقهورة مغلوبة . « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (من آية ١٢٦ من سورة آل عمران) .

---

(١) يقصد الحكم السابقة من ٥٢ ـــ ٥٦ .

الحكمة السابعة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« النُّورُ لَهُ الكَشْفُ[1] ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الحُكْمُ[2] ، وَالْقَلْبُ لَهُ الإِقْبَالُ وَالإِدْبَارُ »[3]

قال ابن عباد :

هذه ألفاظ مختلفة لمعان متغايرة ؛ فالنور يفيد كشف المعانى المغيبات ؛ حتى تتضح وتشاهد . والبصيرة التى هى ناظر القلب ، تفيد الحكم ، وهو صحة ما شاهدته .

والقلب له الاقبال ؛ عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة ، وله أيضا الأدبار ؛ تركا للعمل بمقتضى ما شاهدته البصيرة .

تعقيب

النور من شأنه أن يكشف الأمور ، ويوضحها ؛ حتى يظهر حسنها من قبحها .

والبصيرة المفتوحة من شأنها : أن تحكم على الحسن بحسنه ، وعلى القبيح بقبحه . أما القلب فهو يقبل على ما يثبت صحته ، ويدبر عما يثبت قبحه .

---

(١) النور له الكشف : المراد بالنور : الذى يقذفه الله فى قلب عبده .
ومعنى له الكشف : أى كشف المعانى مثل حسن الطاعة ، وقبح المعصية .

(٢) والبصيرة لها الحكم : البصيرة : هى عين القلب . ومعنى لها الحكم : أى إدراك الامر الذى شاهدته .

(٣) والقلب له الاقبال والادبار : الاقبال : أى على ما كشف للبصيرة ، وحكمت بحسنه كالطاعة .
والادبار : أى عما كشف لها ، وحكمت بقبحه كالمعصية .

فالقلب له الاقبال على ما كشف للبصيرة ، وحكمت بحسنه كالطاعة ، وله الادبار عما كشف لها ، وحكمت بقبحه ، كالمعصية .

فنور القلب هو الأصل ، وما بعده تبع له ، قال تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّه » (من آية ٢٢ من سورة الزمر)

وقال تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ الله أن يهديه يَشْرَحْ صَدرهُ الإسْلاَمِ » (من آية ١٢٥ من سورة الأنعام) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا إن فى الجسد مضغة : اذا صلحت ـــ صلح الجسد كله ، واذا فسدت ـــ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »

(رواه البخارى ومسلم)

الحكمة الثامنة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ ؛ لأنَّها ، بَرَزَتْ مِنْكَ ، وأفْرَحْ بَهَا ؛ لأنَّهَا بَرَزَتْ مِنْ اللهِ إِلَيْكَ . (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحواْ هو خيرٌ مَّما يَجْمَعُون) » .

قال ابن عباد :

الفرح بالطاعة على وجهين : فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمة منه وفضلا ، فهذا هو الفرح المحمود ، وهو الذى طلب من العبد ، وهذا هو مقتضى شكرها .

وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وارادته ، وحوله وقوته ، فهذا هو فرح مذموم ، منهى عنه ، وهو كفران النعمة ، وهو من العُجْبِ الْمُحْبط للعمل ، فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شيء .

وسيأتى فى آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم ـــ وما يحمد منها ، وما يذم ـــ تامةً مستوفاة .

تعقيـــب

لا يكن فرحك بالطاعة من حيث صدورها عنك ، باختيارك وحولك وقوتك ، فهذا هو الفرح المذموم المنهى عنه .

وإنما ليكن فرحك بالطاعة من حيث تفضل الله بها عليك ، فهى نعمة منه اليك ، وفضل من الله عليك ، وهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد ، وهو المقتضى شكر النعمة لقوله تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم » .
(من آية ٧ من سورة ابراهيم) .

فان ظهرت منك ــ أيها المريد ــ طاعة ، فلا تفرح بها حيث إنها برزت منك فتكون مشركا بربك ، فان الله غنى عنك وعن طاعتك . قال تعالى : « وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عنِ الْعَالَمِين » (آية ٦ من سورة العنكبوت) .
وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل :
« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم ــ كانوا على اتقى قلب رجل واحد ــ ما زاد ذلك فى ملكى شيئا » الحديث .

ــ وانما تفرح بها من حيث أنها هدية من الله اليك ، تدل على أنك من مظاهر كرمه وفضله ، فالفرح إنما هو بفضل الله ورحمته ، قال تعالى « قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرحواْ هُو خَيرٌ مما يجْمعُون » (آية ٥٨ من سورة يونس)

الحكمة التاسعة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« قَطَعَ السَّائِرِين لَهُ[1] ، وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ[2] عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ ، وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ : أَمَّا السَّائِرُون[3] ــ فَلِأَنَّهُم لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللهِ فِيهَا ــ وَأَمَّا الْوَاصِلُون[4] فَلِأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِه عَنْهَا » .

قال ابن عباد :

لقد أسبغ الله نعمته على الفريقين ، حيث فعل معهم ذلك ؛ لأنه أبقاهم معه ، ولم يدعهم لسواه ، فالواصلون ــ فعل ذلك بهم طوعا منهم ، والسالكون فعل ذلك بهم كرها « ولله يَسجُد مَنْ فى السمواتِ والأرضَ طَوْعاً وَكَرهاً »[5].

فالواصلون قطعهم عن ذلك ، لشهودهم له فى حضرة قربه ، ومن شاهده ــ لم يشهد معه غيره ، إذ محال أن يراه ، ويشهد معه سواه .

---

(١) قطع : أى حجب ومنع ، قال « ابن عجيبة » قطع بمعنى غيب . ولو عبر به لكان أظهر وأسهل ، لما فى تعبير القطع من الشؤم . ثم قال : وفى عبارته شيء من النقص ، فلو قال : غيب السائرين ، فلأنهم لم يتحققوا فيها الصدق مع الله ، وأما الواصلون ، فلأنهم لم يشهدوا مع الله سواه .
قطع السائرين له : أى حجبهم عن رؤية أعمالهم . وفاعل قطع : ضمير يعود الى الحق سبحانه وتعالى ، والسائرين والواصلين مفعول به » .

(٢) قطع الواصلين إليه : أى منعهم عن شهود أحوالهم . ففى الكلام لف ونشر مرتب كما يقول علماء البلاغة والبديع .

(٣) أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها : أى لرؤيتهم نقصها بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها ، فهم دائما متهمون نفوسهم فى توفية أعمالهم حقها .

(٤) وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها : اى أنهم نسبوها إليه تبرئيًا من حولهم وقوتهم .

(٥) من آية ١٥ من سورة الرعد .

والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق أو البراءة من الدعوى ، فهم أبدا مُتَّهِمون لأنفسهم فى توفية أعمالهم ، وتصفية أحوالهم .

قال النهرجورى رضى الله تعالى عنه : من علامات من تولاه الله فى أحواله ـــ أن يشهد التقصير فى اخلاصه ، والغفلة فى أذكاره ، والنقصان فى صدقه ، والفتور فى مجاهداته ، وقل المراعاة فى فقره ، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ، ويزداد فقرا الى الله فى قصده وسيره ؛ حتى يفنى عن كل ما دونه .

وقال أبو عمرو اسماعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه : لا يصفو لأحد قدم فى العبودية ؛ حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء ، وأحواله كلها عنده دعاوى .

وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه : لوصفت لى تهليلة واحدة ـــ ما باليت بعدها بشىء . والى هذين المقامين ـــ تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى رضى الله تعالى عنه ، وذلك أنه لما دخل نيسابور ـــ سأل أصحاب أبى عثمان رضى الله تعالى عنه : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟

فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ، ورؤية التقصير فيها . فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مُجْرِيها ومُنشِئِها[1]

قال الاستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : وانما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الاعجاب ، لا تعريجا فى أوطان التقصير ، أو تجويزا للاخلال بأدب من الآداب .

تعقيـــب

الحق سبحانه وتعالى ـــ غيب السائرين له ، والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم الظاهرة وشهود أحوالهم الباطنة

---

(١) يريد بذلك ترقى همتهم الى مقام العرفان ، لا تحقير ما هم عليه ، فإنه من الاحسان .

أما السائرون فلأنهم يتهمون أنفسهم على الدوام ، فمهما صدر منهم احسان ، ولاح لهم يقظة ـــ رأوها فى غاية الخلل والنقصان ، فاستحيوا من الله أن يعتمدوا عليها ، أو يعتدوا بها ، فغابوا عن أعمالهم وأحوالهم ، واعتمدوا على ربهم .

سئل بعض العارفين : ما علامة قبول العمل ؟ قال : نسيانك إياه ، وانقطاع نظرك عنه بالكلية . قال تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » (من آية ١٠ من سورة فاطر) .

وأما الواصلون ، فلأنهم فانون عن أنفسهم ، غائبون فى شئون معبودهم ، إذ محال أن تشهده ، وتشهد معه سواه (« ابن عجيبة » فى « ايقاظ الهمم ») .

قال بعضهم : لا تنظر الى عملك ـــ وان صح ـــ وانظر لمن وفقك اليه . وقال تعالى : « ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » (من آية ٨٨ من سورة هود) .

الحكمة الستون

قال ابن عطاء الله :

« مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إلاَّ عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ »

قال ابن عباد :

البسوق : الطول : يقال بسقت النخلة بسوقا اذا طالت ، قال الله تعالى ، والنخل باسقات » والأغصان : جمع غصن ، وهو ما تشعب عن سوق الشجر ، ويجمع أيضا على غصون .

والبذر : الحب الذى يزرع ، وهذه كلها استعارات مليحة .

والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة فى عبوديتها ، بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس ، والتجاء اليهم ، واعتماد عليهم ، وعبودية لهم ، وفى ذلك من المذلة والمهانة مالا مزيد عليه ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، والطمع مضاد لحقيقة الايمان الذى يقتضى وجود العزة .

والعزة التى اتصف بها المؤمنون ـــ انما تكون برفع هممهم الى مولاهم ، وطمأنينة قلوبهم إليه ، وثقتهم به ، دون من سواه ، فهذه هى العزة التى منحها الله عبده المؤمن .

قال الله تعالى : « ولله العزةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين[1] »

وكما أن العزة من صفات المؤمنين ـــ كذلك المذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين ، قال الله تعالى : « إن الذين يُحَادُّون الله ورسولَه أُولَئِكَ فى الأَذَلِّينَ » .[2]

---

(١) من آية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) آية ٢٠ من سورة المجادلة .

قال أبو بكر الوراق الحكيم[1] رضى الله تعالى عنه : لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال الشك فى المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟: قال : اكتساب الذل . ولو قيل : ماغايتك ؟ قال الحرمان .

وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى رضى الله تعالى عنه :

من أُشْعِرَ فى نفسه محبة شيء من الدنيا ـــ فقد قتلها بسيف الطمع ، ومن طمع فى شيء ذَلَّ ، وَبَذْلُهُ هَلَكَ . وقد قيل فى ذلك :

أتطمع فى ليلى وتعلم أنما تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامِعُ

فالطامع لا محالة فاسد الدين ، مفلس من أنوار اليقين . قال فى التنوير[2] : وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه ، وَتَطَهَّر من الطمع فى الخلق ؛ فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ـــ ما طهره الا اليأسُ منهم ، ورفع الهمة عنهم .

قال : وقدم على بن أبى طالب رضى الله عنه ـــ البصرة ، فدخل جامعها فوجد القُصَّاص يقصون . فأقامهم ، حتى جاء الى الحسن البصرى رضى الله عنه ، فقال : يا فتى ! إنى سائلك عن أمر ، فإن أجبتنى عنه أبقيتك ، والا أقمتك ، كما أقمت أصحابك . وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ، فقال الحسن : سل عما شئت .

قال : ما ملاك الدين ؟ قال : الورع . قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع قال : اجلس ، فمثلك من يتكلم على الناس .

قال : وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : كنت فى ابتداء أمرى بثغر الاسكندرية ، جئت الى بعض من يعرفنى ، فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ، ثم قلت فى نفسى لعله لا يأخذه منى ، فهتف بى هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين قال : وسمعته يقول : صاحب الطمع ـــ لا يشبع أبدا ! ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة : الطاء والميم والعين ! ثم قال بعد هذا : فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم ، فقد سبقت قِسمتُك وجودَك ، وتقدم ثبوتُه

---

(١) أبو بكر الوراق الحكيم : هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى : أقام ببلخ وصحب أحمد بن خضروية ، وله تصانيف فى الرياضيات .

(٢) « التنوير فى اسقاط التدبير » تأليف الشيخ الامام القطب الربانى ابن عطا الله السكندرى .

ظهورك ، واسمع ما قاله بعض المشايخ : أيها الرجل : ما قدر لماضِغَيْك أن يَمْضُغاه ــ فلابد أن يمضغاه ، فَكُلْهُ ــ وَيْحَكَ ــ بِعِزٍّ ، ولا تأكله بِذُلّ .

قلت : تقدم الآن من كلامه فى التنوير : ذكر الورع فى مقابة الطمع ــ وكذلك فى جواب الحسن لعلى رضى الله عنهما ــ لما سأله مستخبرا له عن صلاح الدين ، وفساده فى الكلام الذى حكاه عنهما . ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس ــ وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات ــ لا يقابل الطمع كل المقابلة .

وقد ذكرنا الطمع ما هو ، وإنما يقابله ورع الخاصة ، وهو عندهم صحة اليقين ، وكمال التعلق برب العالمين ، ووجود السكون اليه ، وعكوف الهمم عليه ، وطمأنينة القلب به ، ولا يكون له ركون الى غيره ، ولا الانتساب الى خلق ولا كون ، فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد .

وبه يصلح كل عمل مقرب ، وحال مُسْعِد ، كما نبه عليه الحسن رضى الله عنه فى جوابه المذكور .

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر : ألا يتحرك الا لله . وورع فى الباطن : وهو ألا يدخل فى قلبك الا الله . ذكر أن بعضهم كان حريصاً على أن يرى أحداً ممن هذه صفته ، فجعل يجتهد فى طلبه ، ويحتال الى التوصل اليه ، بأن يأخذ الشىء بعد الشىء من ماله ، ويقصد به الفقراء والمساكين ، ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة : خذ ، لا لك[1] ، فكانوا يأخذون ، ولا يسمع من أحد منهم جوابا مطابقا لما أراده بكلامه . الى أن ظفر ذات يوم ببغيته ، وحصل على مقصوده ومنيته ، وذلك أنه قال لأحدهم : خذ ، لا لك فقال له : آخذه ، لا منك .

فإن كان للعبد استشراف الى خلق ، أو سَبْقِيَّةٍ ــ نظر اليهم قبل مجىء الرزق أو بعده ، فمقتضى هذا الورع والواجب فى حق الأدب ــ ألا ينيل نفسه شيئا مما يأتيه على هذه الحال ، عقوبة لنفسه فى نظره الى أبناء جنسه . كقصة أيوب الحمال

---

(١) لعل المراد بهذا التعبير : خذه لله لا لك ، وكان جواب الأخير : آخذه لا منك ، أى : من الله . (المراجع) .

مع أحمد بن جنبل رضى الله عنهما . وهى معروفة ، وكما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه .

أتاه حمال بقمح ، فنازعته نفسه ، وقالت له : يا ترى من أين هذا ؟ فقال لها : أنا أعرف من أين هو ، يا عدوة الله ، وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها ، لكونها رأت الخلق — قبل رؤية الحق تعالى . وقد قيل : أحلُّ الحلال ما لم يخطر لك على بال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال . وقد صرح بهذا المعنى الذى ذكرناه ، وأوضح الغرض الذى قصدناه — شيخ الطريقة ، وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين — أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه ، فإنه قال : اعلم أن الورع ألا يكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ وعطاء أو قبول أورد ، وأن يكون السبق لله تعالى ، وهو أن يأتى اليه طاهرا من جميع الأشياء .

والعلم والعمل كما قال : « ولقد جِئْتُمونا فُرَادى كما خَلَقْنَاكُمْ أَوَّل مَرةٍ »[1]

وقال أيضا : الورع ألا يخطر الرزق بالبال ، ولا يكون بينه وبينه نسبة : لا فى التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى : أيأكل أم لا ؟

وقال أيضا : الورع ألا تتحرك ولا تسكن الا وترى الله فى الحركة والسكون ، فاذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون ، وبقى مع الله .

فالحركة ظرف لما فيها ، كما قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا رأيت الله فيه ، فاذا رأى الله — ذهبت الأشياء .

وقال أيضا : أجمع العلماء على أن الحلال المطلق — ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط ، وهذا مقام التوكل ، ولهذا قال بعضهم : الحلال هو الذى لا يُنْسى الله فيه ، الى غير هذا من العبارات التى عبر بها فى هذا المعنى .

وقال بعض هذه الطائفة : العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم ، ثم يفترقون فى المشاهدات ، فمنهم من يأكل رزقه بذل ، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ، ومنهم من يأكل رزقه بعز : بلا مَهْنَةٍ ولا انتظار ولا ذلة .

فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذل — فالسؤَّال . يشهدون أيدى الخلق ، فيذلون

---

(١) من آية ٩٤ من سورة الأنعام .

لهم وأما الذين يأكلون ارزاقهم بامتهان فالصنَّاع . يأكل أحدهم رزقه بِمَهِنَةٍ وكد .

وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار ـــ فالتجار . ينتظر أحدهم نَفَاق سلعته ، فهو متعذب القلب ، معذب بانتظاره .

وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مَهْنةٍ ولا انتظار ولا ذل ـــ فالصوفية يشهدون العزيز ، فيأخذون قسمتهم من يده بعزة[1] .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ليس مع الايمان أسباب ، انما الأسباب فى الاسلام .

قال الشيخ أبو طالب رضى الله تعالى عنه . معناه ليس فى حقيقة الايمان ـــ رؤية الأسباب والسكون اليها ، انما رؤيتها والطمع فى الخلق ـــ يوجد فى مقام الاسلام .

وقد عقد المؤلف رحمه الله تعالى فى « لطائف المنن »[2] ـــ فصلا فى هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلا ومبنى ، فرأينا نقله فى هذا الموضوع من صواب العمل ، والتكفل إن شاء الله بنجاح الأمل .

قال رضى الله عنه : اعلم رحمك الله : أن ورع الخصوص ـــ لا يفهمه إلا قليل ، فان من جملة ورعهم ـــ تورعهم عن أن يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم فى غير فضله وخيره . ومن ورعهم ـــ ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب ، وخلع الانداد والأرباب ومن ورعهم ـــ ورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات والسكون الى أنوار التجليات .

ومن ورعهم ـــ ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا ، أو ترفعهم الآخرة ، تورعوا عن الدنيا وفاء ، وعن الوقوف مع الآخرة صفاء .

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد ـــ أريد الموصل ، فأنا أسير وإذا أنا بالدنيا ـــ قد عرضت على بعزها وجاهها ، ورفعتها ومراكبها وملابسها

---

(١) ليس معنى هذا أن الصوفى لا يعمل صانعا أو تاجرا ، وانما المراد أنه يعمل لله ، وينتظر منه الجزاء ، عاجلا أو آجلا ، دون سؤال ولا مذلة . (المراجع)

(٢) لطائف المنن : لابن عطاء الله السكندرى .

ومزيناتها ومشتهياتها ـــ فأعرضت عنها ، فعرضت على الجنه بحورها وقصورها وأنهارها وأثمارها ـــ فلم أشتغل بها ، فقيل لى : يا عثمان . لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ، ولو وقفت مع الثانية ـــ لحجبناك عنا ـــ فها نحن لك ، وقسطك من الدارين يأتيك .

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى . وكان مقيما بشرقى الاسكندرية ـــ حججت سنة من السنين ، فلما قضيت الحج ـــ عزمت على الرجوع الى الاسكندرية ، فإذا العلّى يقول لى : إنك فى العام القابل عندنا ، فقلت فى نفسى : اذا كنت فى العام القابل ههنا فلا أعود الى الاسكندرية ، فخطر لى الذهاب الى اليمن ، فأتيت الى عدن ، فأنا يوما على ساحلها ، واذا بالتجار ـــ قد أخرجو بضائعهم ومتاجرهم .

ثم نظرت فاذا رجل فرش سجادته على البحر ، ومشى على الماء .

فقلت فى نفسى : لم أصلح للدنيا ولا للآخرة ، فاذا العلّى يقول لى : من لم يصلح للدنيا، ولا للآخرة ـــ يصلح لنا .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله تعالى عنه : الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه ، فقد انتهى بهم الورع الى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهم فى عموم أوقاتهم ، وسائر أحوالهم ـــ لا يدبرون ، ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ، ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يمشون ، ولا يبطشون ولا يتحركون ـــ الا بالله ولله ، من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فهم مجموعون فى عين الجمع ـــ لا يتفرقون فيما هو أعلى ، ولا فيما هو أدنى .

وأما أدنى الأدنى ـــ فالله يوزعهم عنه ثوابا ، لورعهم ، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان ـــ فهو محجوب بدنيا ، أو مصروف بدعوى ، وميراثه التعزز لخلقه ، والاستكبار على مثله ، والذلة على الله بعمله ، فهذا هو الخسران المبين ، والعياذ بالله العظيم من ذلك ، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ، ويستعيذون بالله منه .

ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقارا لنفسه ، وافتقارا الى ربه ، وتواضعا لخلقه ـــ

فهو هالك . فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مُصْلِحِهم[1] .

كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن مُوجِدَهم !

« فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم »[2] .

قال : فانظر ، فَهَّمَكَ الله سبيل أوليائه ، ومَنَّ عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذى ذكره الشيخ رضى الله عنه ـــ هل كان يصل فهمك الى مثل هذا النوع من الورع ؟

ألا ترى قوله : قد انتهى بهم الورع الى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهذا هو ورع الأبدال والصديقين ، لا ورع المنقطعين الذى نشأ عن سؤ الظن ، وغلبة الوهم ، انتهى .

وانما أوردنا هذه المعانى ههنا ، تتميما للفائدة المتعلقة بكلام صاحب « التنوير » من كون الورع مقابلا للطمع . وسيأتى مزيد بيان فيها فى موضع أنسب من هذا ، عند قوله : « لا تمدن يدك الى الأخذ من الخلائق » الى آخره » .

---

(١) يعنى بذلك تشاغل العبد الصالح بصلاحه عن ذكر ربه ، واسناد الفعل اليه على الحقيقة ، ولعل من هذا الباب ما تناشده صحابة رسول الله فى احدى غزواته : والله لولا الله ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا . فقد اسندوا صلاحهم الى ربهم لا الى أنفسهم . (المراجع)

(٢) من آية ٩٨ من سورة النمل .

الحكمة الحادية والستون

قال ابن عطاء الله :

« مَاَ قَادَكَ شَىء مِثْلُ الْوَهْمِ »

قال ابن عباد :

الوهم أمر عدمى ، وهو ضد الحقيقة الوجودية ، والنفس الناقصة انقيادها الى الأمور الوهمية الباطلة ـــ أشد من انقيادها الى الحقائق الثابتة ، لوجود المناسبة بينهما . والطمع فى الناس انقياد الى الأوهام الباطلة ، لأن الطمع تصديق الظن الكاذب ، والطمع فيهم طمع من غير مطمع ، وأرباب الحقائق بمعزل عن هذا ، فلا يتعلق همهم الا بالله ولا يتوكلون الا عليه ، ولا يتقون الا به ، قد سقط اعتبار الأوهام والخيالات التى هى متعلقة بالأغيار عن قلوبهم ، فزال عنهم الطمع ، فاتصفوا بصفة القناعة والورع ، فكانت لهم الحياة الطيبة ، والعيشة الراضية .

والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين ، وهى من بدايات أحوال الراضين . قال بعض العارفين : لا يكون العبد قانعا ، حتى لو جاء الى باب منزله جميع ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة ، فعرض عليه ـــ لم ينظر الى ذلك ، ولم يفتح بابه ، قناعة منه بحاله[1] . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـــ فى معنى قوله تعالى « فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً »[2]
قال : هى القناعة .

---

(١) الاشارة هنا الى أن العبد قد انصرف الى القناعة بحاله ونظر الى ما هو عليه ، ولم يكن منه توجه الى الله يتجاوز به دنيا الناس (المراجع)

(٢) من آية ٩٧ من سورة النحل .

تعقيـــب

لا يقود العبد ، ولا يجره الى الطمع فى الخلق ، والتملق لهم ، والتذلل لما فى أيديهم ـــ شىء مثل الوهم ، فالعبد عندما يتوهم أن بأيدى الناس ـــ نفعا أوضرا ، أو عطاء أو منعا ـــ يطمع فيهم ، ويتذلل لهم ، ويعتمد عليهم ، فالوهم يحجب العبد عن الله ، ويصرفه الى ما سواه . أعاذنا الله منه .

فعلى العبد أن يؤمن بأن النافع والضار ـــ هو الله ، وأن أمر الخلق بيد الله ، وأنهم جميعا فى قبضة الله ، وانهم عاجزون عن نفع أنفسهم ! فكيف يقدرون على نفع غيرهم !؟

قال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (آية ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء)

والقلب السليم ـــ هو الذى لا تعلق له بشىء الا الله سبحانه وتعالى .

الحكمة الرابعة والستون

قال ابن عطاء لله :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ[1] ــ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا ــ فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا »

قال ابن عباد :

شكر النعم موجب لبقائها ، والزيادة منها ، وكفرانها وعدم شكرها ــ موجب لزوالها ونقصانها .

قال الله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم »[2] ــ وقال الله تعالى : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[3] أى : اذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات ، وهى شكر النعم ، ــ غيّر الله تعالى ما منه اليهم من الاحسان والكرم .

واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة ، فقالوا : الشكر قيد النعم . وقالوا : الشكر قيد للموجود ، وصيد للمفقود .

وكان يقال : النعم اذا روعيت بالشكر ــ فهى اطواق ، واذا روعيت بالكفر ــ فهى اغلال . والشكر على ثلاثة أوجه : شكر بالقلب ، وشكر باللسان ، وشكر بسائر الجوارح .

---

(١) الشكر لغة : فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب انعامه .
أما الشكر فى الاصطلاح : فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله .
من شكرها فقد قيدها بعقالها : هنا صورة تشبيه النعم بالابل التى من شأنها النفار ان لم تقيد بالعقال .
قال بعض الحكماء : الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود .

(٢) من آية ٧ من سورة ابراهيم .

(٣) من آية ١١ من سورة الرعد

فشكر القلب : أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى ، قال الله تعالى : « ومابكم من نعمة فمن الله »[1] وشكر اللسان : الثناء على الله تعالى ، وكثرة الحمد والمدح له ، ويدخل فيه التحدث بالنعم ، واظهارها ونشرها ، قال الله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث[2] .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تذكروا النعم ، فان تذكرها شكر . ومن شكر اللسان أيضا ـــ شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم .
وفى حديث النعمان بن بشير ـــ رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

وعن اسامة بن زيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أشْكَرَ الناسِ لله ـــ أشْكَرُهُم للناسِ .

وسيأتى الكلام على هذا المعنى فى آخر الكتاب إن شاء الله تعالى عند كلام المؤلف عليه . وشكر سائر الجوارح : أن يعمل بها العمل الصالح . قال الله تعالى : « اعملوا آل داود شكرا »[3] فجعل العمل شكرا .

وروى عن النبى ﷺ : أنه قام حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : يا رسول الله ، أتفعل هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا . وسأل رجل أبا حازم رضى الله عنه : فقال له : ما شكر العينين ؟ قال : اذا رأيت بهما خيرا ـــ أعلنته ـــ واذا رأيت بهما شرا ـــ سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : اذا سمعت بهما خيرا ـــ وعيته ، واذا سمعت بهما شرا ـــ دفنته .

قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقا هو لله فيهما . قال فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبرا ، وأعلاه علما .

---

(١) من آية ٥٣ من سورة النحل .
(٢) آية ١١ من سورة الضحى .
(٣) من آية ١٣ من سورة سبأ .

قال فما شكر الفرج ؟ قال : كما قال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين »[٢]

قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئا غبطته ـــ استعملتهما فيه ، وإن رأيت شيئا مقته ـــ كففتهما عن عمله ، وأنت شاكر لله تعالى .

فأما من شكر بلسانه ، ولم يشكر بجميع أعضائه ـــ فمثله كمثل رجل له كساء ، فأخذه بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد ، والثلج والمطر .

وأجمع العبارات للشكر ـــ قول من قال : الشكر معرفة بالجنان ، وذكر باللسان وعمل بالأركان .

والقدر اللازم من شكر النعم ـــ ما قاله الجنيد رضى الله عنه ، حين سأله السرى رضى الله عنه . قال الجنيد رضى الله عنه : كنت بين يدى السرى رضى الله عنه ، وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام . ما الشكر ؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمته ! فقال : يوشك أن يكون حظك من الله ـــ لسانك . فلا أزال أبكى على هذه الكلمة !

تعقيـــب

نعم الله على العباد كثيرة ، وأفضاله عليهم عديدة ، قال تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (آية ٢١ من سورة الذاريات) .

وهذه النعم التى أسبغها الله على العباد ـــ لا تعد ولا تحصى . قال تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » (آية ١٨ من سورة النحل)

وقال تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » (آية ٣٤ من سورة ابراهيم)

فعلى العبد ـــ دائما ـــ أن يحمد الله ، وأن يشكره ـــ سبحانه وتعالى ـــ على نعمه وفضله .

---

(١) آية ٥ ، وآية ٦ من سورة المؤمنون .

قال تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » (آية ٧ من سورة ابراهيم) .

قال الشيخ « زروق » فى شرحه ـ شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء : حفظها عن الزوال ، وتغيير الحال ، بالانتقال ، وزيادتها فى الحال وبركتها فى المآل ، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال .

وعدم الشكر ضامن للسلب ، وتشويش القلب ، ومقت الرب »

فما أجمل شكر النعمة ، وما أعظم فضلها ، وما أقبح جحود النعمة وكفرانها ، ، ولله در القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فان المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الاله سريع النقم

الحكمة الخامسة والستون

قال ابن عطاء الله :

« خَفْ مَنْ وُجُودِ إِحْسَانِه إِلَيْكَ ، وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ ــ أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَكَ : (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) »[1] .

قال ابن عباد :

الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين ، وعدم الخوف منه مع الدوام على الاساءة من صفات الكافرين . يقال : من أمارات الاستدراج ــ ركوب السيئة ، والاغترار بزمن المهلة ، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة ، وهذا من المكر الخفى ، قال تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » أى لا يشعرون بذلك ، وهو أن يلقى فى أوهامهم ــ أنهم على شىء ، وليسوا كذلك ، يستدرجهم فى ذلك شيئا فشيئا ؛ حتى يأخذهم بغتة ، كما قال تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به » ــ إشارة الى مخالفتهم وعصيانهم ــ « فتحنا عليهم ابواب كل شىء » ، أى فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية « حتى اذا فرحوا بما أوتوا » من الحظوظ الدنيوية ، ولم يشكروا عليها برجوعهم الينا ــ « أخذناهم بغتة » أى فجأة ــ « فإذا هم مبلسون »[2] ــ أى آيسون قانطون من الرحمة .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه فى قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث

---

(١) من آية ٤٤ سورة القلم . ٢١٨

(٢) آية ٤٤ من سورة الانعام .

لا يعلمون » نمدهم بالنعم ، وننسيهم الشكر عليها ، فاذا ركنوا الى النعمة ، وحجبوا عن المنعم أخذوا .

وقال ابن عطاء الله : كلما أحدثوا خطيئة ـــ جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة .

تعقيـــب

خف ـــ أيها المريد ـــ من دوام احسان الحق اليك : بالصحة والفراغ والمال والبنين مع دوام إساءتك اليه : بالغفلة والتقصير وعدم الشكر ـــ أن يكون ذلك استدراجا قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

فالله ـــ سبحانه وتعالى ـــ ينعم على عباده بنعمه ، ويرسل اليهم من يذكرهم به ، ويدلهم عليه ، فاذا أعرضوا ـــ بسط لهم النعم ، حتى اذا اطمأنوا ، وفرحوا بما آتاهم الله أخذهم بغتة .

قال تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » (آية ١٧٨ من سورة آل عمران)

فالواجب على الانسان اذا أنعم الله عليه بنعمة ـــ أن يعرف حقها ، وأن يبادر الى شكرها . نطقا واعتقادا وعملا : نطقا بالحمد والشكر باللسان » وأما بنعمة ربك فحدث » واعتقادا بشهود المنعم فى نعمه واسنادها إليه « وما بكم من نعمة فمن الله » وعملا بصرفها فى طاعة الله ، وعدم عصيانه بنعمته » اعملوا آل داود شكرا» فإن فعل هذا ـــ فقد شكر الله ، وأدى حق النعمة ، والا خيف عليه سلب النعمة أو الاستدراج . وفقنا الله الى شكر نعمه ، وأداء حقها ، ووقانا سلب نعمه واستدراجه .

الحكمة السادسة والستون

قال ابن عطاء الله :

« مِنْ جَهْلِ المُرِيدِ ــ أَنْ يُسِيءَ الأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ[1] فَيَقُولَ : لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ ــ لَقَطَعَ الإِمْدَادَ[2] ، وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ[3] ، فَقَدْ يُقْطَعُ المَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ مَنْعَ الْمَزِيدِ[4] . وَقَدْ يُقَامُ مَقَامَ الْبُعْدِ[5] ــ وَهُوَ لاَ يَدْرِى ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَنْ يُخَلِّيكَ وَمَا تُرِيدُ[6] » .

قال ابن عباد :

هذا نوع من الاستدراج الذى تقدم ذكره ، وسوء أدب المريد موجب لعقوبته ، ولكن العقوبات مختلفة : فمنها معجلة ، ومنها مؤجلة ، ومنها جلية ، ومنها خفية . فالعقوبة الجلية : العقوبه بالعذاب ، والعقوبة الخفية : العقوبة بوجود الحجاب .

---

(١) تؤخر العقوبة عنه : أى لا يعاقب فى ظاهره بالبلايا والاسقام ، ولا فى باطنه بحسب زعمه .

(٢) قطع الإمداد : بكسر الهمزة : مصدر أمد ، أو بفتحها : جمع مدد ، وهو ما يرد من فضل الله .

(٣) أوجب الابعاد : أى بعد المسىء عنه بعدم حضوره معه .
فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر : هذا تعليل لما قبله ، أى انما كان ذلك من جهل المريد ، لأنه قد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر .

(٤) ولو لم يكن إلا منع المزيد : أى لو لم يكن من قطع المدد عنه ــ الا منع الزيادة من المدد ــ لكان ذلك كافيا فى قطع الامداد . فجواب « لو » محذوف .

(٥) وقد يقام مقام البعد : أى قد يقام ذلك المريد فى مقام البعد ، وهو لا يدرى .

(٦) ولو لم يكن الا أن يخليك وما تريد : أى ولو لم يكن من اقامته فى مقام البعد الا أن يخليك ــ أيها العبد المسىء ــ وما تريد : بأن يسلط عليك نفسك ، ويمنع نصرتك عليها ــ لكفى ذلك البعد فجواب « لو » محذوف أيضا .
وفى هذا الأسلوب : التفات من الغيبة الى الحضور ، فابن عطاء الله يخاطب المريد ، وكأنه حاضر بين يديه ، وذلك لما صدر منه من سوء الأدب .

فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب ، والعقوبة بالحجاب لأهل اساءة الأدب بين يدى علام الغيوب ، وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة ــ أشد على المريد من العقوبة الجلية والمعجلة .

ومثال تلك العقوبة الخفية : ما ذكره من قطع المدد عنه ، واقامته مقام البعد عنه ، وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذى ذكرناه .

فإذا ابتلى به المريد ، ولم تتداركه رحمة من الله تعالى فى الحال العتيد ــ كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ، ووقوع الحجاب على قلبه ، وتبدل الأنس بالوحشة ، وانتساخ الضياء بالظلمة ، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الأولى ، لأنه اذ ذاك تنقطع عنه الامدادات المتصلة ، والواردات المتحصلة ، فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان ، وتستتر عنه الكشوفات والبيان . وهذه جنود الله تعالى فى قلب العبد ، فاذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع فى الخذلان ، واستحوذ عليه الشيطان ، فأنساه الذكر ، وحاق به سيىء المكر ، ورجع الى متابعة هوى نفسه الامارة ، وخرج من دائرة الصفوة المختارة ، فنعوذ بالله من سوء المقدور ، وعدم التوفيق الى مراعاة أوائل الأمور ، وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله ــ يقتضى توجه هذه العقوبة إليه ضربة لازب ، لأن قوله : لو كان هذا سوء أدب الخ ــ دليل على رضاه بحاله واستحسانه لأعماله ، وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذى اقتضاه قطع المدد عنه ، ولو كان متواصلا اليه ــ لازداد عندما يقع منه سوء الأدب ؛ تواضعا لربه ، وافتقارا إليه ، وخوفا من مكره ، ولم يستحسن حال نفسه ، ولم يرضها .

قال سيدى أبو العباس رضى الله عنه : كل سوء أدب يثمر لك أدبا مع الله تعالى فهو أدب ــ وهو الذى أوجب له أيضا التخلية بينه وبين ما يريد الذى اقتضى له اقامته مقام البعد ؛ اذ لو كان مقاما فى القرب ــ لبعد عن رؤية نفسه ، وكان متهما لها فى إرادتها ، وكان واقفا مع مراد الله به ، فإن أقدم على أمر ما بإرادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة ، وعوق عليه ما أراده ، وسد عليه مسالكه ، ولم يخله ، وما أراد من ذلك .

ويقال : من علامة التوفيق ثلاث : دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك اليها ، وصرف المعاصى عنك مع السعى فيها ، وفتح باب اللجأ . والافتقار الى الله تعالى فى كل الأحوال . ومن علامة الخذلان ثلاث : تعسر الطاعات عليك مع السعى فيها ، ودخول المعاصى عليك مع الهرب منها ، وغلق باب اللجأ الى الله تعالى ، وترك الدعاء فى الأحوال .

والأدب له موقع عظيم فى التصوف ؛ ولذلك قال أبو حفص رضى الله عنه : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب . فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ــ فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : قال لى رويم : يا بنى . اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا . وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرا وباطنا ، فما أساء أحد الأدب ظاهرا الا عوقب ظاهرا ، وما أساء أحد الأدب باطنا الا عوقب باطنا .

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه : اذا خرج المريد عن حد الأدب ــ فانه يرجع من حيث جاء .

وقال الثورى رضى الله عنه : من لم يتأدب للوقت ــ فوقته مقت .

وقال ابن المبارك رضى الله عنه : نحن الى قليل من الأدب أحوج منا الى كثير من العلم .

وقيل لبعضهم : ياسيء الأدب ! فقال : لست بسيىء الأدب ! فقيل له : ومن أدبك ؟ فقال : الصوفية .

والآداب اللازمة للمريد عامةٌ فى ظاهره وباطنه ، وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن ، وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الاخلاق كلها .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ انه قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى . ثم أمرنى بمكارم الأخلاق ، فقال : « خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين »[1]

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

ولا يحصل لك ذلك بعد توفيق الله تعالى وتأييده الا بالرياضة والمجاهدة .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها .

ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص ، فرب شخص ذكى الفطرة ، كريم السجية سهل المقادة ــ لا يحتاج فى ذلك الى كثير معاناة ولا تعب ، ورب شخص يكون حاله على عكس هذا ــ فلا جرم يحتاج الى زيادة تعب ، وقوة ممارسة وشدة مجاهدة ؛ لرداءة فطرته ، ونقصان غريزته .

وبين هذين درجات لا تحصى ، ولهذا كله يحتاج المريد الى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم ، واتباع أوامرهم ونواهيهم ، لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره ــ لا يصح له الانتقال عن الهوى ، و لو بلغ فى الرياضة والمجاهدة كل مبلغ ، وذلك لكثافة حجاب نفسه .

وقد سئل الدقاق رضى الله عنه : بماذا يقوّم الرجل اعوجاجه ؟ فقال : بالتأدب بإمام فان من لم يتأدب بإمام ــ بقى بطالا ، فإذا دام العبد على ذلك ــ تزكت نفسه ، وطهر قلبه ، وتهذبت أخلاقه ، وظهر على ظاهره أنوار ذلك ، فتكون حركات ظاهره وباطنه مزمومة بزمام الأدب ؛ حتى تنتهى به إلى المحافظة على اجتناب أمور غير مستنكرة فى ظاهر العلم ، ويكون ترك محافظته عليها ذنبا من مثله ، وقد يعاتب عليه ، وقد يعاقب من أجله .

قال السرى رضى الله عنه : صليت العشاء ، واشتغلت بوردى ليلة من الليالى ، ومددت رجلى فى المحراب ــ فنوديت يا سرى ! هكذا تجالس الملوك !؟
فضممت رجلى ، ثم قلت : وعزتك وجلالك ــ لا مددت رجلى أبدا .
قال الجنيد رضى الله عنه : فبقى ستين سنة ، ما مد رجله ليلا ولا نهارا

وقال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : كان الاستاذ أبو على الدقاق رضى الله عنه لا يستند الى شىء ، فكان يوما فى مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره ، لأنى رأيته غير مستند ، فتنحى على الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توقى

الوسادة ، لأنه لم يكن عليها خرقة ولا سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند الى شيء أبدا .

وقال أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : كنت جالسا فى مسجد الشونيزية ، انتظر جنازة أصلى عليها ، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ، ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيراعليه أثر النسك ، يسأل الناس ، فقلت فى نفسى : لو عمل هذا عملا يصون به نفسه لكان أجمل به . فلما انصرفت الى منزلى ، وكان لى شيء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك ثقل علىّ جميع أورادى ، فسهرت وأنا قاعد ، فغلبتنى عينى ،فرأيت ذلك الفقير ، جاءوا به على خوان ممدود ، وقالوا لى : كل لحمه ، فقد اغتبته ، وكشف لى عن الحال ، فقلت : ما اغتبته ، وانما قلت فى نفسى شيئا ، فقيل لى : ما أنت ممن يرضى منك بمثله ، اذهب واستحله ، فأصبحت ، ولم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع ، يلتقط من الماء عند ترداد الماء ــ أوراقا من البقل ، مما تساقط من غسل البقل ، فسلمت عليه ، فقال : أتعود يا أبا القاسم !؟ فقلت : لا ، فقال : غفر الله لنا ولك : الى غير ذلك من آدابهم رضى الله عنهم أجمعين .

والظاهر أن مراد المؤلف رحمه الله باساءة الأدب ــ ما كان فيه نوع من الرعونة ، واظهار الدعوة ، واتصاف العبد بصفة المولى ، وانبساطه وادلاله فى موقف الهيبة والحياء ، وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به ، ولكن ينبغى للمريد ألا يتهاون بشيء من الآداب ، ولا يستحقرها ، فان التهاون بذلك ، والاحتقار له من مخامرة الجهل ، وعدم المعرفة بالله تعالى ، وهذا اقبح أنواع سوء الأدب . فان وقعت منه اساءة أدب ، فليكن خائفا من ذلك ، مستعظما للأمر فيه ، وليبادر الى التوبة والاعتذار والتنصل منها ، خشية أن توجه اليه العقوبة ، من حيث لا يشعر .

وآكد ما ينبغى أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التى ظهر لنا أنها مراد المؤلف رحمه الله تعالى من أنواع سوء الأدب ــ أن يوطن خاطره على شيء من الاعتراض على الله تعالى وتعاطى التدبير معه ، والتبرم بأحكامه المؤلمة فى نفسه

أو غيره ، وأن يسرح لسانه بالشكوى الى الخلق ، والعيب لما يوافق هواه ، أو نقص فى نظره ، مما يراه من الحق . فان خطر بباله ، أو جرى على لسانه شيء من ذلك ـــ فليبادر الى الاستغفار منه ، والتفصى عنه[1] ، وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات ، وذلك يدخله فى مقامات الرضا . ويوصله الى غاية النعيم والعطاء ، كما أن توطينه عليه ، وتهاونه به من أعظم خطاياه ، وأكبر ذنوبه ، ويؤديه ذلك الى تسخط الأقدار ، والوقوع فى دركات النار ، نعوذ بالله من ذلك .

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير ، فلم يعرف له خبرا ثلاثة أيام ،فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال : اعتراضى عليه فيما قضى ـــ أشد علىّ من ذهاب ولدى !

وقال بعض السادة : أذنبت ذنباً ، فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ! وكان قد اجتهد فى العبادة ، لأجل التوبة من ذلك الذنب ! فقيل له : وما ذلك الذنب ؟ قال : قلت مرة لشيء ليته كان . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض ـــ كان أحب الىّ من أن أقول لشيء قضاه ـــ ليته لم يقضه !

وقال بعضهم : مرض الجنيد رضى الله عنه : فقال : اللهم عافنى ، فسمع هاتفا يقول : مالك والدخول بينى وبين ملكى ؟ . ومن مقتضياتها أيضا : أن يعلق بقلبه شيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء ، وأن يترك تعظيمهم واحترامهم ، وألا يقبل اشارتهم فيما يشيرون به عليه ، فقد قالوا عقوق الاستاذين[2] لا توبة له ـــ وقالوا أيضاً : من قال لاستاذه : لمَّة ـــ لا يفلح ! وقال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : من صحب شيخا من الشيوخ ، ثم اعترض عليه بقلبه ـــ فقد نقض عهد الصحبة ، ووجبت عليه التوبة وان بقى من أهل السلوك قاصد لم يصل الى مقصوده ـــ فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته ، فإن الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين . قال : وفى الخبر : إن الشيخ فى أهله كالنبى فى أمته .

---

(١) التفصى : الابتعاد والتخلص من الشيء (المراجع) .

(٢) هذا جمع تصحيح لكلمة (أستاذ) وهو نادر الاستعمال ، وإن كان جاريا على القياس والمألوف فيه جمع التكسير : (أساتذة) ـــ المراجع .

وكذلك من سوء أدبه ، تصدره للتعليم والهداية ، وتصديه للأمر والولاية ، ومحبته للاستتباع والرياسة ، وتربيته للجاه والحشمة ، والقبول بين الناس ، واستدعاؤه بسره أن يكرم ويعظم ويتبرك به وتقبل يده ويسارع فى قضاء حوائجه ، وذلك من أضر الأشياء به ، وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه ، وعدم تفقده لعيوبه ، واتهام نفسه فى كل حال من أحواله . وذلك مذموم منه .

وقال أبو عثمان رضى الله عنه : لا يرى أحد عيب نفسه ، وهو يستحسن من نفسه شيئا ، وانما يرى عيوب نفسه — من يتهمها فى جميع الأحوال .

وقال أبو عبد الله السجزى رضى الله عنه : من استحسن شيئا من أحواله فى حال ارادته — فسدت عليه ارادته إلا أن يرجع الى ابتدائه ، ويروض نفسه ثانيا .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : سمعت جدى يقول : آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه . فان استشعر المريد من نفسه شيئا مما ذكرناه — فليبادر الى قطع مواده ، واستئصال عروقه ، من قبل أن يستحكم ذلك فيه ، ويرسخ فيه ، فبدايات الأمور — هى التى ينبغى أن تراعى كثيرا .

ومن أنواع سوء أدب المريد المفضي الى عطبه — نزوله عن مقتضيات الحقيقة ، الى رخص الشريعة ، فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة ، الموجبة لا نحطاط الرتبه والبعد عن محل القرب .

ولهذا قالوا : اذا رأيت المريد — انحط عن رتبة الحقيقة الى رخص الشريعة — فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله ، وفسخ عقده بينه وبين الله[1] .

---

(١) هذا مذهب من التشدد ، يراه الصوفية فى معاملة النفس ، ومعالجة نقائصها ، بحسب المقامات ، لكنه ليس بملزم للعامة . (المراجع)

الحكمة التاسعة والستون

قال ابن عطاء الله :

« قَلَّمَا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الإِلَهِيَّة إلاّ بَغْتَةً ، لِئَلا يَدَّعِيَهَا الْعُبَّادُ بِوُجُودِ الاسْتِعْدَادِ »

قال ابن عباد :

الواردات الالهية هدايا من الله تعالى ، وتُحَفٌ وكرامات يكرم بها عباده ، فلا تكون فى الغالب الا بغتة ، أى فجأة ، لئلا يَدَّعُوهَا ، ويروا أنفسهم أهلا لها ، بوجود استعدادهم وتهيئتهم ، وتحف الله تعالى وهداياه ــ مقدسة عن أن تعلل بأمر ومنزهة عن أن تقابل بأعمال برّ ، بل هى محض كرم وفضل من الكريم المتفضل .

تعقيـــب

الواردات الالهية من الأسرار العرفانية ، والعلوم الوهبية التى يمن الله بها على عباده ــ لا تأتى بالاستعداد لها ، لأنها لا تنال بالاجتهاد فى العبادات والأوراد ، وإنما تأتى بغتة من غير روية ولا استعداد ولا توقيت . وذلك لأنها من مواهب العلى الوهاب ، فحصولها بغير استعداد كثير ، أما حصولها بالاستعداد لها ــ فنزر يسير وذلك صيانه لها أن يدعيها العباد ، بأن يروا أنفسهم أهلا لها بالتأهب والاستعداد . فالواردات انما هى مواهب ، وفضل ورحمة من الله .

« والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (من آية ١٠٥ من سورة البقرة) .

الحكمة الحادية والسبعون

قال ابن عطاء الله :

« إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدَارَ — لاَ تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لاَبَقَاءَ لَهَا » .

قال ابن عباد :

إنما جعل ثواب المؤمنين فى دار الآخرة — فيما ظهر لنا لوجهين : أحدهما أن الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسا ولا معنى .

أما الحس فلأن الدنيا متدانية المسافات ، ضيقة الأقطار ، ويعطى الله تعالى لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم — كما ورد فى الخبر — مسيرة خمسمائة عام ، فماظنك بخواصهم !؟ فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم .

وأما المعنى فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والخساسة والحقارة ، والأشياء التى يتنعم بها أهل الجنة — أمور شريفة رفيعه كما جاء فى الأخبار : ان موضع سوط الجنة خير من الدنيا وما فيها ، وأن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس ، وما أشبه هذا .

ويكفى فى ذلك قوله عز من قائل : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »[1] . وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »

---

(١) من آية ١٧ سورة السجدة .

والثانى أن الله تعالى أجلّ أقدار عباده المؤمنين ، فلم يجعل لهم الجزاء على طاعاتهم فى دار فانية منقضية منصرمة ، لأن كل ما يفنى ــ وان طالت مدته ــ لا شيء ، بل أعطاهم الخلود فى النعيم ، والبقاء الدائم فى الملك المقيم ، وناهيك به شرفا تسميته اياهم باسمه الكريم ، وهو الحى الذى لا يموت . جاء فى تفسير قوله تعالى « وملكا كبيرا »[1] ان الله تعالى يرسل الملك الى وَليِّه ويقول له : استأذن على عبدي فإن أذن لك فادخل ، والا فارجع ، فيستأذن عليه من سبعين حجابا ، ثم يدخل عليه ، ومعه كتاب من الله عز وجل ، عنوانه : من الحى الذى لا يموت الى الحى الذى يموت ، فاذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه : عبدى ، اشتقت اليك فزرنى . فيقول : هل جئت بالبراق ؟ فيقول : نعم ، فيركب البراق ، فيغلب الشوق على قلبه ، فيحمله شوقه ، ويبقى البراق الى أن يصل الى بساط اللقاء .

تعقيـــب

إنما جعل الله تبارك وتعالى ــ الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، دون الدنيا ، وذلك لسببين : الأول : أن هذه الحياة الدنيا ــ لا تسع ما يريد الله أن يعطيهم ، وذلك لقوله تعالى '' قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى '' ، (من آية ٧٧ من سورة النساء)

وقوله تعالى :'' فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (آية ١٧ من سورة السجدة)

وقوله عليه الصلاة والسلام : يقول الله تعالى : اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والثانى : أنه سبحانه وتعالى أعظم منازل عباده المؤمنين ــ عن أن يجازيهم فى دار لابقاء لها ، لأن مآلها إلى الزوال ، وهى الدنيا ، فقد ادخر لهم فى الآخرة النعيم المقيم ، والتمتع بالنظر الى وجهه الكريم .

وقد جاء فى الخبر : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لا ختار العاقل الذى يبقى على الذى يفنى .

---

(١) من آية ٢٠ من سورة الانسان .

الحكمة الثانية والسبعون

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقُبُولِ آجِلاً »[1]

قال ابن عباد :

ثمرة العمل وجدان الحلاوة فيه ، والنعيم به ، ويتصور ذلك فى أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تكره ، واستثقال له ، هذا هو غالب الأمر .

قال بعض العارفين : ليس شيء من البر الا ودونه عقبة يحتاج الى الصبر فيها ، فمن صبر على شدتها أفضى الى الراحة والسهولة ، وانما هى مجاهدة النفس ، ثم مخالفة الهوى ، ثم مكابدة فى ترك الدنيا ، ثم اللذة والتنعم .

وقال عتبة الغلام رضى الله تعالى عنه : كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة .

وقال ثابت البنانى رضى الله تعالى عنه : كابدت القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة .

وقال بعض العلماء : كنت أقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ؛ حتى تلوته ، كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ ، يتلوه على أصحابه رضى الله عنهم ، ثم رُفِعْتُ الى مقام فوقه ، وكنت أتلوه ، وكأنى أسمعه من جبريل عليه السلام ؛ يلقيه على

---

(١) ثمرة العمل : هى ما ينشأ عنه من لذة الطاعة ، وحلاوة المناجاة .
ودليل وجود هذه الثمرة . النشاط فى النهوض اليها ، والاغتباط بها ، والمداومة عليها .
عاجلا : أى فى الدنيا .
فهو دليل على وجود القبول آجلا : أى قبول الله له .

رسول الله ﷺ ، ثم تصدق الله تعالى علىّ بمنزلة أخرى ، فأنا الآن كأنى أسمعه من المتكلم به ، فعندها وجدت له لذة ونعيما ، لا أصبر عنه .

وما ذكرناه من الحلاوة والنعيم ـــ إنما هو ثمرة الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى .

قال أبو تراب رضى الله تعالى عنه : اذا صدق العبد فى العمل ـــ وجد حلاوته قبل أن يعمله ، واذا أخلص فيه ـــ وجد حلاوته وقت مباشرة العمل ، والأعمال الموصوفة بهذه الصفات ـــ مقبولة بفضل الله تعالى .

ورد فى الخبر : '' لا يقبل الله من مسمع ولا مراء '' ـــ دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة ـــ مقبول من قول الله عز من قائل '' انما يتقبل الله من المتقين ''(١) . وقبول الله تعالى لعمل العبد ، ورضاه به ـــ هو ثوابه المعجل ، كما يقول المؤلف بعد هذا وذلك علاوة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة ، حسبما يأتى فى قوله '' وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا '' .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : كل عمل ليس له ثواب فى الدنيا ليس له جزاء فى الآخرة .

فحصل من هذا أن وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضى لوجود الرضا والجزاء ، ولذلك قال الحسن رضى الله تعالى عنه : تفقدوا الحلاوة فى ثلاث فان وجدتموها فأبشورا ، وامضوا لقصدكم ، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق : عند تلاوة القرآن ، وعند الذكر ، وعند السجود ، وزاد غيره وعند الصدقة وبالأسحار .

وقيل فى قوله تعالى : '' ولمن خاف مقام ربه جنتان ''(٢) قال : جنة معجلة ، وهى حلاوة الطاعات ، ولذاذة المناجاة ، والاستئناس بفنون المكاشفات ، وجنة مؤجلة ؛ هى فنون المثوبات ، وعلو الدرجات .

---

(١) من آية ٢٧ من سورة المائدة .

(٢) آية ٤٦ من سورة الرحمن .

قلت : وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون الا فى مقام المعرفة الخاصة ، وهى التى تنافيها المعصية .

قيل لبعضهم : هل تعرف الله ؟ فغضب على السائل ، وقال : أترانى أعبد من لا أعرفه !؟ فقال له : أو تعصى من تعرفه !؟

وقيل لبعضهم : بم تعرف أنك عرفته ؟! فقال : لم أقصد مخالفته الا ورد على قلبى استحياء منه .

وقال اسماعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه : التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر ، فإن العصيان فى حال العرفان بعيد ، فإن وقعت منه زله أو هفوة بحكم ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ـــ وجد لا محالة لذلك مرارة وألما فى قلبه ، فوجدان هذه المرارة والألم فى المعصية ـــ علامة على صحة ما وجد من الحلاوة والنعيم فى الطاعة ، فهذه هى الحلاوة التى هى الميزان للأعمال المقبولة ، وغير المقبولة ، كما ذكرناه .

وأما الحلاوة التى يجدها من دون أهل هذا المقام فى بعض العبادات ـــ فمدخوله معلولة ، الا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة . والحلاوة على الاطلاق اذا وجدها العامل فى العمل ـــ لا ينبغى له أن يقف معها ، ولا يفرح بها ، ولا يسكن اليها ، وكذلك أيضا لا ينبغى له أن يقصد بعمله الى نيلها ، لما له فيها من اللذه والحظ ، فان ذلك مما يقدح فى اخلاص عبادته ، وصدق ارادته ، وليكن اعتناؤه بحصولها ، لتكون ميزانا لأعماله ، ومحكا لأحواله فقط .

قال الواسطى رضى الله تعالى عنه : استحلاء الطاعات سموم قاتله .

قال فى لطائف المنن : وصدق الواسطى ، فأقل ما فى ذلك أنك اذا فتح لك باب حلاوة الطاعة ، تصير قائما فيها ، متطلبا لحلاوتها ؛ فيفوتك صدق الاخلاص فى نهوضك لها ، وتحب دوامها لا قياما بالوفاء ، ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة فتكون فى الظاهر قائما لله ، وفى الباطن انما قمت لحظ نفسك ، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة ـــ جزاء تعجلته فى الدنيا ، فتأتى يوم القيامة ، ولا جزاء لك .

الحكمة الثالثة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

'' إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ[1] ــ فَانْظُرْ فِيمَاذَا يُقِيمُكَ[2] .

قال ابن عباد :

هذا ميزان صحيح ، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : '' من أراد أن يعرف منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه ، فان الله عز وجل ينزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه '' وهذا الانزال المذكور المنسوب الى العبد هو معنى الاقامة المذكورة ، اذ العبد لا فعل له على التحقيق .

قال الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه : إنما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه .

وقال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه : فاذا كان العبد لنظر مولاه مكرما ، ولحرماته معظما ، والى محبوبه ومرضاته مسارعا ــ كان الله عز وجل له فى الآخرة لوجهه مكرما ، ولشأنه معظما ، والى مسرته من النعيم المقيم مسارعا ، واذا كان العبد بحق مولاه متهاونا ، وبأمره مستخفا ، ولشعائره مستصغرا ــ كان

---

(١) اذا أردت أن تعرف قدرك عنده : يعنى هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء ، وهذا بالنسبة للعامة . وأما الخاصة ، فيقال : إن أردت أن تعرف قدرك : أى منزلتك عنده ، هل أنت من المقربين ــ أوْلا ؟

(٢) فانظر فيماذا يقيمك : يعنى من طاعة أو ضدها . هذا بالنسبة للعامة ، وأما بالنسبة للخاصة'' فانظر فيما يقيمك '' أى يورده على قلبك من ادراك عظمته وجلالته .

الله عز وجل له مهينا ، وبشأنه متهاونا وإلى ما يكره من العذاب الأليم له مسارعا ، والعياذ بالله من ذلك .

وقال وهب بن منبه رضى الله تعالى عنه : قرأت فى بعض الكتب : يابن آدم ، أطعنى فيما أمرتك ، ولا تعلمنى بما يصلحك ، إنى عالم بخلقى ، إنما أكرم من اكرمنى ، وأهين من هان عليه أمرى ، لست بناظر فى حق عبدى ؛ حتى ينظر عبدى فى حقى .

تعقيـــب

هذه الحكمة تشير الى الحديث القدسى : يقول الله تبارك وتعالى : '' أنا الله لا اله الا أنا ، خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير ، وأجريت الخير على يده ، وويل لمن خلقته للشر ، وأجريت الشر على يديه .''

وقال الله تعالى : '' فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى '' (الآيات من ٥ الى ١٠ من سورة الليل)

فيأيها المؤمن ، اذا أردت أن تعرف نفسك ، وقدرك عند الله ـــ فانظر فى أى شىء أقامك . فإن رضيك الله تعالى لحسن طاعته ـــ فلتعرف قدر ذلك الخير العظيم ، ولتشكر مولاك على عظيم نعمته ، وسابغ فضله عليك .

الحكمة الرابعة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

|
|---|
| '' مَتَى رَزَقَكَ الْطَّاعَةَ[1] ، وَالْغِنَى بِهِ عَنْهَا[2] ـــ فَاعْلَمْ أَنَّه قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ[3] ظَاهِرَةً[4] وَبَاطِنَةً[5] '' |

قال ابن عباد :

المطلوب من العبد شيئان : إقامة الأمر فى الظاهر ، والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء به عن غيره .

فاذا رزق الله تعالى العبد هذين الأمرين ـــ فقد أسبغ الله عليه نعمه : ظاهرة وباطنة ، وأوصله إلى غاية الأمل فى الدنيا والآخرة ، سبحانه جل وعلا .

تعقيـــب

نعم الله ظاهرة وباطنة . فنعمه الظاهرة : تكون بطاعته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ونعمه الباطنة : تكون بالغنى عن الطاعه ، وذلك بعدم الاعتماد عليها . فعلى العبد المؤمن أن يجمع بين النعمتين : الظاهرة بأن يمتثل أوامر الله ، ويجتنب نواهيه ـــ والباطنة بأن يستغنى بالله عن الطاعة ، فلا يعتمد عليها .

---

(١) متى رزقك الطاعة : أى امتثال الأوامر ، واجتناب النواهى .

(٢) الغنى به عنها : أى الغنى بالله سبحانه وتعالى ـــ عن تلك الطاعة ، وذلك بعدم الركون الى الطاعة والاعتماد عليها .

(٣) اسبغ عليك نعمه : أى أكمل وأتم عليك نعمه .

(٤) ظاهرة : هى نعم الطاعات .

(٥) باطنة : هى معرفتك بالله التى تباعدك عن الاغترار بالطاعات .

قال عليه الصلاة والسلام : '' ليس الغنى بكثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس '' وذلك هو الغنى بالله ، وهذه هى النعمة الحقيقية .

وقال عليه الصلاة والسلام : '' أحب العباد الى الله : الأغنياء ، الأخفياء ، الاتقياء '' أى : الأغنياء بالله ، الغائبون فيه عما سواه . فهذا هو الغنى الحقيقى .

أتم الله علينا نعمه ، ظاهرة وباطنة ، ورزقنا الحياء منه ، سرا وعلانية .

الحكمة الخامسة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

خَيْرُ ما تَطْلُبُهُ مِنْهُ[1] ــ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ[2]،، .

قال ابن عباد :

اذا كان لابد من الطلب منه ، فاطلب ما هو طالبه منك من الاستقامة على سبيل العبودية له ، فذلك خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك ، لأنك حينئذ تكون به وله ، ويسعفك بمطلوبك عاجلا من غير تأخير ، وأما إن طلبت منه حظ نفسك ، ونيل مرادك ــ فقد يحصل فى ذلك تأخير ومنع ، مع ما يفوتك حينئذ من حسن الأدب فى الطلب . يحكى عن أبى الحسين الديلمى رضى الله تعالى عنه ، أنه قال : وصف لى بأنطاكية انسان أسود ، يتكلم على القلوب ، قال : فقصدته ، فلما رأيته رأيت معه شيئا من المباحات ، يريد أن يبيعه ، فساومته ، وقلت له : بكم تبيع هذا ؟ فنظر الىّ ، ثم قال : اقعد فإنك جائع منذ يومين ، حتى إذا بعنا هذا ، نعطيك من ثمنه شيئا ، قال فمضيت الى غيره ، وتغافلت ، كأنى لم أسمع ما قال ، وساومت غيره ما كان بين يديه ، ثم رجعت اليه ، وقلت له : بكم تبيع هذا ؟ فنظر الى ، وقال : اقعد ، فإنك جائع منذ يومين ، حتى اذا بعنا هذا ، نعطيك من ثمنه شيئا ، قال : فوقع فى قلبى منه هيبة ، فلما باع ذلك ، أعطانى شيئا ، ومضى ، قال : فمضيت خلفه ، لعلى أستفيد منه شيئا ، قال : فالتفت الىّ ، وقال :

---

(١) خير ما تطلبه منه : أى أفضل الأشياء التى تطلبها منه سبحانه وتعالى .

(٢) ما هو طالبه منك : أى الاستقامة ظاهرا وباطنا على سبيل العبودية له .

اذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله إلا أن يكون لك فيها حظ ، فتحتجب بها عن الله تعالى .

ومن دعاء أبى القاسم الجنيد رضى الله تعالى عنه : اللهم ، وكل سؤال سألتك فعن أمرك لى بالسؤال ، فاجعل سؤالى اليك سؤال محابك ، ولا تجعلنى ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ ، بل يسأل القيام بواجب حقك .

ومن دعائه أيضا : اللهم ، أنى أسألك منك ما هو لك ، واستعيذك من كل أمر يسخطك ، اللهم ، ولا تشغلنى بشغل من يشغله عنك ما أراده منك الا أن يكون لك ، اللهم اجعلنى ممن يذكرك ذكر من لا يريد بذكره منك الا ما هو لك ، اللهم ، غاية قصدى اليك ما هو لك ، ولا تجعل قصدى اليك ما أطلبه منك .

تعقيـــب

أيها العبد المؤمن ، أفضل ما يُطلب منه سبحانه وتعالى ـــ ما يطلبه منك : من الطاعة والاستقامة ظاهرا وباطنا ، وذلك على سبيل العبودية له ، فهذا خير لك من طلبك لحظوظك ورغباتك ومراداتك : دنيوية وأخروية ، فالله سبحانه هو الذى يختار لك ، وهو العالم بمصالحك ، والقادر على توصيلها اليك .

ومن دعاء أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه « اللهم ، اجعل غاية قصدى اليك ما هو لك ، ولا تجعل قصدى اليك ـــ ما أطلبه منك »

ومما قاله الشيخ « زروق » رضى الله عنه ـــ فى شرحه :

« والذى هو طالبه منك ثلاث : التخلى عن كل شىء الا عنه ـــ والتحلى بما يرضيه عنك ، ويردك اليه ـــ والدوام على ذلك ، حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير . ويعبر عن ذلك باحدى عبارات ثلاث :ـــ الطاعة والغنى به عنها ، والصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية ، والامتثال لأمره ، والاستسلام لقهره .

الحكمة السادسة والسبعون

قال ابن عطاء الله:

« الْحُزْنُ[1] عَلَى فِقْدَانِ الطَّاعَةِ[2] ـ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ[3] إِلَيْهَا ـ مِنْ عَلاَمَاتِ الاغْتِرَارِ »[4]

قال ابن عباد :

هذا هو الحزن الكاذب الذى يكون معه البكاء الذى كما قالوا : كم من عين جارية وقلب قاس ، وهو آمن مكر الله تعالى الخفىّ ، حيث منعه ما ينفعه ، واعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء .

سمعت رابعة رضى الله تعالى عنه ، رجلا يقول : واحزناه !

فقالت : قل ـ واقلة حزناه ! لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس !

وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا ، وهو مقام من مقامات السالكين ، وهو يبعث على الانكماش فى الأعمال ، والنهوض الى الطاعات على كل حال .

قال الشيخ أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه : صاحب الحزن يقطع من طريق الله عزّ وجل ـ فى شهر مالا يقطعه من فقد حزنه فى سنين ، وفى الخبر : « إن الله يحب كل قلب حزين »

---

(١) الحزن : انقباض القلب ، لفوت محبوب ، أو خوف حصول مكروه .

(٢) فقدان الطاعة : عدم وجودها فى الحال .

(٣) مع عدم النهوض اليها : أى فى المستقبل .

(٤) من علامات الاغترار : أى الغرور ، وهو الركون الى مالا حقيقة له .

وفى التوراة : ان الله اذا أحب عبدا نصب فى قلبه نائحة ؛ واذا أبغض عبدا نصب فى قلبه مزمارا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكر .

وقيل : الحزن اذا فقد من القلب خرب . ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذة العبادة .

فإذن الحزن الذى يجده العبد من نفسه ، ان لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد ـــ فذلك من علامات الاغترار ، وليس بمقام السالكين الأبرار .

تعقيـــب

الحزن على فقدان الطاعة ـــ مع عدم النهوض الى استدراك ما فات منها ، أو الى تحصيل ما حضر منها ـــ من علامات الغرور ، والركون الى مالا حقيقة له . وهذا هو الحزن الكاذب الذى يكون معه البكاء الكاذب ، كما قيل : كم من عين جارية وقلب قاس .

وكما قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : ليس البكاء بتعصير العيون ، وانما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه .

وقيل : لا يغرنك بكاء الرجل ، فان أخوة يوسف ـــ جاءوا أباهم عشاء يبكون ، وقد فعلوا ما فعلوا .

وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا استكمل الرجل النفاق ـــ ملك عينيه يرسلهما متى شاء »

أما الحزن الصادق ـــ فهو الذى يبعث على الطاعات ، ويكون معه البكاء الصادق . وهو من مقامات السالكين .

وكان عليه السلام دائم الفكر ، متواصل الأحزان مع إدامة الطاعة ليلا ونهارا ؛ فلتكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة .

الحكمة الثامنة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

« الرِّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ[1] ، وَإِلاَّ فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ[2] »

قال ابن عباد :

الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين ، وهو يبعث على الاجتهاد فى الأعمال كما ذكرناه فى الحزن ، لأن من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه . وأما الرجاء الكاذب الذى يُفَتِّر ضاحبه عن العمل ، ويجرئه على المعاصى والذنوب ـــ فليس هذا برجاء عند العلماء ، ولكنه أمنية ، واغترار بالله تعالى ، وقد ذم الله تعالى قوما ظنوا مثل هذا ، وأصروا على حب الدنيا ، والرضا بها ، وتمنوا المغفرة على ذلك ، فسماهم خلْفا ، والخَلْف : الردىء من الناس ، فقال عز من قائل : « فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا »[3]

قال معروف الكرخى رضى الله تعالى عنه : طلب الجنة بلا عمل ـــ ذنب من الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب ـــ نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع

---

(١) قال بعض العلماء : الرجاء : تعلق القلب بمطموع يحصل فى المستقبل مع الأخذ فى العمل المحصل عليه . والأمنية : اشتهاء وتمن لا يصحبه عمل .
الرجاء ما قارنه عمل : أى الرجاء ما كان باعثا على الاجتهاد فى الأعمال .

(٢) والا فهو أمنية : أى إن لم يقارن الرجاء عمل ـــ بأن كان يفتر صاحبه عن العمل ويجرئه على المعاصى والذنوب ـــ فهو أمنية : أى ليس برجاء حقيقة عند العلماء وانما هو أمنية ، واغترار بالله تعالى : ويقال له : رجاء كاذب .

(٣) من آية ١٦٩ من سورة الاعراف .

جهل وحمق . وقال معروف الكرخى أيضا رضى الله تعالى عنه : رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلان وحمق .

واعلم أنه ليس فى أفعال الحق سبحانه ما يوجب أن يؤمن عقابه ، انما فى أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته ، وكما لا يحسن ألا يظهر من لطفه فى خلقه ـــ لا يحسن الطمع فى جانبه ، ويؤمن أخذه وانتقامه ، فإن من قطع أشرف عضو بربع الدينار ـــ لا يؤمن أن يكون عذابه غدا هكذا .

وقد قالوا : من زعم أن الرجاء مع الاصرار صحيح ـــ فليزعم أن طلب الربح فى القبر ، وقدح النار فى البحر ـــ صحيح .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله تعالى الأمانى » . وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا ، وليس لهم حسنة ، يقول أحدهم : أحسن الظن بربى ، وهو يكذب ، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل ، وتلا قول الله عز وجل « وذلك ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين »(١)

وكان يقول رضى الله تعالى عنه : عباد الله ، اتقوا هذه الأمانى ، فإنها أودية الهلكة ، تحلون فيها ، والله ما آتى الله عبدا بأمانيه خيرا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وكتب أبو عمير المنصورى الى بعض اخوانه : أما بعد ، فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك ، وتتمنى على الله الأمانى بسوء فعلك ، وإنما تضرب حديدا باردا .

تعقيـــب

الرجاء الحقيقى ـــ هو ما قارنه العمل ، وذلك بأن يكون باعثا على الاجتهاد فى الأعمال ، والأخذ بالأسباب ، لأن من رجا شيئا ، وطمع فى تحقيقه ـــ فعليه

---

(١) آية ٢٣ من سورة فصلت .

أن يطلبه بالعمل الجاد . قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » (من آية ٢٨٢ من سورة البقرة) . وفى الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم :

« إنما العلم بالتعلم ، وانما الحلم بالتحلم ، من يطلب الخير يؤته ، ومن يتق الشر يوقه .

« أما اذا لم يقارن الرجاء عمل ــ فهو أمنية ، ورجاء كاذب ، واغترار بالله تعالى ، قال عليه الصلاة والسلام : « ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل ، وإن قوما غرتهم الأمانى ، حتى خرجوا من الدنيا ، ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا . لو أحسنوا الظن ــ لأحسنوا العمل .

فعلى العبد المؤمن أن يصحب رجاءه بالعمل ، وحسن الظن بالله ، وبعباد الله ، إنه أن فعل ذلك ــ هيأ الله له الخير ــ ويسر له من يأخذ بيده ، قال تعالى : « إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (آية ٧٠ من سورة الانفال)

كما أن عليه أن يبتعد عن سوء الظن . قال تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (آية ٢٣ من سورة فصلت) .

الحكمة الثالثة والثمانون

قال ابن عطاء الله :

« رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ »

قال ابن عباد :

مَنْعُ الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته ، والكون مع شيء من عاداته ــ عطاء جزيل منه ، لأنه أبقاه معه ، واقتطعه عن حظوظه وأغراضه ، وجرده منها . وعكس هذا هو المنع على التحقيق ، وان كان عطاء فى الظاهر .

قال الشيخ محيى الدين بن العربى : اذا منعت ــ فذلك عطاؤه ، واذا أعطيت فذلك منعه ، فاختر الترك على الأخذ .

فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك ، فلن يعدم منه خيرا .

تعقيـــب

ربما أعطاك ــ الله سبحانه وتعالى ــ ما تميل إليه نفسك من الشهوات ، ونعيم الحياة الدنيا ولذتها ــ فمنعك التوفيق والطاعة والاقبال عليه . وربما منعك من شهواتك وملذات الحياة ــ فأعطاك التوفيق والرضا والقبول . وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ذلك المعنى فى قوله تعالى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا ....: (الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة الفجر) .

أى ليس الأمر كذلك ، فقد يكون المنع عطاء ، والعطاء إهانة . ومما قاله « ابن عجيبة » :

الغالب على النفس الامارة واللوامة أن تنبسط بالعطاء ، وتنقبض بالمنع ، لأن فى العطاء متعتها وشهوتها ، فلا جرم أنها تنبسط بذلك ، وفى المنع قطع موادها وترك حظوظها ، ولا شك أنها تنقبض بذلك ، وذلك لجهلها بربها ، وعدم فهمها . فلو فهمت عن الله ــ لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع .

فربما أعطاك متعة الحياة الدنيا وزهرتها ، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها ، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها ، فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها .

ربما أعطاك عز الدنيا ، ومنعك عز الآخرة ، وربما منعك عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة .

ربما أعطاك التعزز بالخلق ، ومنعك من التعزز بالحق ، وربما منعك من التعزز بالخلق ، وأعطاك التعزز بالملك الحق .

وما أصدق قول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون . « من آية ٢١٦ من سورة البقرة)

الحكمة السادسة والثمانون

قال ابن عطاء الله :

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لاَ يَفْنَى[1] ، فَلاَ تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍ يَفْنَى »[2] .

قال ابن عباد :

العز الذى لا يفنى : هو الغنى عن الأسباب كلها ، بوجود مسببها ، لأنه باق لا يفنى ؛ فالتعلق به عز لا يفنى .

والعز الذى يفنى : هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها ، لأنها فانية ، فالتعلق بها عز فان لا يبقى ، والتعلق بالله عز لا يفنى . وليس لك الا أحدهما لأنهما ضدان لا يجتمعان .

فان اخترت العز الباقى بالله تعالى ـــ لم يقدر أحد أن يذلك .

يحكى أن رجلا أمر بالمعروف « لهارون الرشيد » فحرد عليه[3] هارون الرشيد ، وكانت له بغلة سيئة الخلق ، فقال : اربطوه معها تقتله برمحها ، ففعلوا ذلك ، فلم تضره فقال : اطرحوه فى بيت ، وطينوا عليه الباب ، ففعلوا ذلك ، فرؤى فى بستان ، وباب البيت مسدوداً ، فَأُخْبِرَ هارون الرشيد بذلك ، فأتى بالرجل ، فقال : من أخرجك من البيت ؟!

---

(١) العز الذى لا يفنى : هو الغنى عن كل الأسباب ، وذلك يكون بالتعلق بمسببها الدائم الوجود ، سبحانه وتعالى .

(٢) العز الذى يفنى : هو التعلق بالاسباب ، مع الغيبة عن مسببها وذلك لأنها فانية ، فتعلقك بها وحدها عز لا يبقى بل يزول بزوالها .

(٣) حرد عليه : غضب عليه .

فقال : الذى أدخلنى البستان . فقال : ومن أدخلك البستان !؟

فقال : الذى أخرجنى من البيت ! فقال : أركبوه دابة ، وطوفوا به فى البلد ، وليقل قائل : ألا ان « هارون الرشيد » قد أراد أن يذل عبدا ، أعزه الله ، فلم يقدر ! .

وإن أردت العز بالأسباب خذلتك ، وأسلمتك أحوج ما تكون اليها ، وكنت فى غاية الذل والهوان .

حكى عن بعضهم ، أنه قال : رأيت رجلا فى الطواف ، وبين يديه شاكرية[1] يطردون الناس ، فبعد ذلك بمدة رأيت انسانا يتكفف الناس على الجسر ، ويسأل شيئا ، قال : فنظرت اليه ، وشبهته بذلك الرجل ، فقال : لأى شيء تنظر !؟

فقلت : أشبهك برجل رأيته فى الطواف ، من شأنه كذا وكذا ، فقال : أنا ذلك الرجل . تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس ، فوضعنى الله فى موضع يترفع فيه الناس !

قال فى التنوير : فان اعتززت بالله دام عزك ، وان اعتززت بغيره ــ فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز ، قال : وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه :

أجعل بربك شأن عز ك يستقر ويثبت
فان اعتززت بمن يمو ت فان عزك ميت

قال : ودخل انسان على بعض العارفين ، وهو يبكى ، فقال : ما شأنك !؟ قال : مات أستاذى ! فقال له ذلك العارف : و لم جعلت أستاذك من يموت !؟ ويقال لك : اذا اعتززت بغير الله ، ففقدته ، واستندت الى غيره فعدمته .

« وانظر الى الهك الذى ظللت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفا إنما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شيء علما »[2]

تعقيـــب

العز الذى لا يفنى ــ هو العز بالله ، والغنى بطاعة الله ، أو بالقرب ممن تحقق

---

(١) شاكرية يطردون الناس : أُجَرَاء وخدم . الشاكرى : الأجير والمستخدم ، والجمع شاكرية .

(٢) سورة طه / من آية ٩٧ ، ٩٨ .

عزه بالله ، فالعز بالله يكون بتعظيمه واجلاله ، وهيبته ، ومحبته ، ومعرفته ، وحسن الأدب معه ، ويكون بالرضا بأحكامه والخضوع تحت قهر جلاله وكبريائه ، وبالحياء والخوف منه ، ويكون بالذل والانكسار .

وأما العز بطاعة الله ـــ فهو بالمبادرة لامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والاكثار من ذكره وبذل المجهود فى تحصيل بره .

وأما العز بالقرب ممن تحقق عزهم بالله ، فيكون بصحبتهم وتعظيمهم وخدمتهم ، وحسن الأدب معهم ، وهذا فى التحقيق يرجع الى العز بالله ، لأنه وسيلة اليه ، قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » (من آية ٨ من سورة المنافقين) .

وأما العز الذى يفنى ـــ فهو التعزز بالمخلوق ، كتعزز ملوك الجور ، ومن انتسب اليهم بكثرة الأتباع والأجناد ، وبالعصى والقهر ، وكالتعزز بالأموال والجاه ، وغير ذلك .

فإن أردت أيها المريد أن يكون لك عز لا يفنى ـــ فاستعز بالله ، وبطاعة الله ، والقرب من أولياء الله ، ولا تستعز بمخلوق يفنى ، فإن من تعزز بمن يموت ـــ مات عزه .

قال تعالى : « أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » (من آية ١٣٩ من سورة النساء) . واعلم أن سبب العز الذى يعطيه الله لأوليائه ـــ هو حبه لهم ، فالعز نتيجة الحب . ففى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

إذا أحب الله عبدا نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماوات : ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، فيحبه أهل الأرض ...

أما سبب حب الله للعبد ـــ فهو زهده فى الدنيا ، ففى حديث الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس »[1] .

---

(١) مما قاله ابن عجيبة فى شرحه .

الحكمة الثامنة والثمانون

قال ابن عطاء الله :

« الْعَطَاءُ مِنْ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ[1] ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ[2] .

قال ابن عباد :

عطية الخلق لك حرمان على التحقيق ، لما فيه من رؤيتك لغير الله ، ووقوفك مع حظوظك وشهواتك ، ومنع الله لك احسان ؛ لأنه ألزمك الوقوف ببابه ، وعافاك من وجود حجابه .

وان شئت قلت : العطاء من الخلق حرمان ، لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك ، وتقلد منتهم فى أخذ عطيتهم ، والمنع من الله احسان ، لأنه حبيبك ، وكل ما يفعل الحبيب محبوب ، ولله در من قال .

فلاألبس النعمى وغيرك مُلْبِسِي ولا أقبل الدنيا وَغَيْرُكَ وَاهِبِي

وفى وصية على رضى الله عنه : لا تجعل بينك وبين الله منعما ، واعدد نعمة غيره عليك مغرما .

وقال بعض الحكماء : حمل المنن أثقل من الصبر على العدم .

وقال آخر : عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة .

---

(١) العطاء من الخلق حرمان : أى أنه اذا أعطاك الخلق شيئا ما ، فأخذته غافلا عن الله ، سبحانه وتعالى — فهو وان كان عطاء فى الظاهر ، لكنه حرمان فى الباطن وفى الحقيقة ، لما فيه من غفلتك عن الله وغياب القلب عن الحق .

(٢) والمنع من الله احسان : أى منع الله لك ، وعدم اعطائك — احسان لك ، لأنه وان كان منعا ظاهرا — فهو عطاء باطنا ، لأنه يقتضى الالتجاء الى الله ، ودوام العبودية لله .

تعقيـــب

العطاء من الله هو العطاء الحقيقى ، والمنع منه هو عين العطاء لمن فهم مراده به . ولكن لا يفهم العطاء ، فى المنع الا صدّيق .

قال أبو حبيب البدوى رضى الله عنه لسفيان الثورى رحمه الله : مالى أطلب الشى ، من الله تعالى ، فيمنعنى ؟ قال : منع الله اياك عطاء ؛ لأنه لم يمنعك من بخل ولا عدم .

وانما كان العطاء من الخلق حرمانا لثلاثة أوجه : أحدها : تقلد المنة والثانى : صرف الوجه اليهم ، والانس بهم ، وربما أدى ذلك الى الاعتماد عليهم . والثالث : شغل الوقت بهم مكافأة وغيرها .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : « اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ؛ لأن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدوّ ترجع به الى الله تعالى خير من صديق يصدك عن الله » (مما قاله الشيخ زروق فى شرحه) .

الحكمة السادسة والتسعون

قال ابن عطاء الله :

« مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلاً وَافْتِقَاراً ــ خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْبَاراً »[1] .

قال ابن عباد :

الذل والافتقار من صفات العبودية ، والعز والاستكبار مناقضان لها ؛ لأنهما من صفات الربوبية ، ولا خير فى الطاعة اذا لزم عنها شيء مما يناقض صفات العبودية ، لأنها تحبطها وتبطلها ، كما لا مبالاة بالمعصية اذا لزمتها صفات العبودية ، لأنها أيضا تمحوها وتزيلها .

قال سيدى أبو مدين رضى الله عنه : انكسار العاصى خير من صولة المطيع ، وكان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه ــ كثير الرجاء لعباد الله ، الغالب عليه شهود وسع الرحمة ، وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى ، حتى إنه ربما دخل عليه مطيع ، فلا يعبأ به ، وربما دخل عليه عاص ، فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ، ناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه ، وذلة مخالفته ، وقد تقدم مثل هذا عند قوله : لا يعظم الذنب عندك عظمة

---

(١) معصية أورثت ذلا وافتقارا ــ خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا : ذلك أن الذل والانكسار ، وكذلك الافتقار والاحتقار ــ من أوصاف العبودية ، وفيه قرب من الله .
أما العز والاستكبار ــ فهما من أوصاف الربوبية ، والتعلق بهما يقتضى الخذلان والتباعد عن المراتب العلية .
وفى رواية : معصية أورثت ذلا وانكسارا »
وفى نسخة الشيخ « زروق » : معصية أورثت ذلا واحتقارا » وهى معان متقاربه .

تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فمن هذا المعنى ما روى عن أبان بن عياش ، أنه قال : خرجت يوما من عند أنس بن مالك رضى الله عنه بالبصرة ، فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ، ولم يكن معهم رجل آخر .

فقلتُ : سبحان الله ! بسوق البصرة ، وجنازة مسلم ، لا يشيعها أحد !؟ فلأكونن خامسهم ، فمضيت معهم ، فلما وضعوها بالمصلى ، قالوا لى : تقدم ، فقلت : أنتم أولى به ، فقالوا : كلنا سواء ، فتقدمت ، فصليت عليه ، وقلت لهم : ما القضية !؟

فقالوا : اكترتنا تلك المرأة ، قال : فقعدتُ ، حتى دفنوه ، فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة ، وهى تضحك ، فدخل قلبى شيء !؟

فقلت : لا ينجيك الا الصدق ، أخبرينى ، ايش القصة !؟

فقالت : ان هذا ابنى ، ما ترك شيئا من المعاصى الا فعله ! ، فمرض منذ ثلاثة أيام ، فقال : ياأماه ، اذا متُ فلا تخبرى بوفاتى جيرانى ، فانهم لا يحضرون جنازتى ويشمتون بموتى ، واكتبى على خاتمى هذا ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، واجعليه على كفنى ، فلعل الله تعالى يرحمنى به ، وضعى رجلك على خدى وقولى : هذا جزاء من عصى الله ، فاذا دفنتينى ، فارفعى يديك الى الله تعالى ، وقولى : انى رضيت عنه ، فارض عنه .

فلما مات فعلت جميع ما أوصى به ، فلما رفعت يدى إلى السماء ، سمعت صوته بلسان فصيح : انصرفى يا أماه ، فقد قدمت على رب كريم رحيم ، غير غضبان علىّ ، فإنما ضحكت من هذا !

ومن المعنى الآخر ما روى أن رجلا من بنى اسرائيل ، أتى عابدا من بنى اسرائيل ، فوطىء على رقبته ، وهو ساجد ، فقال له العابد : ارفع ، فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى الله عز وجل : أيها المتألى علىّ ، بل أنت لا يغفر الله لك .

قال الحرث المحاسبى رضى الله عنه : لأنه انما تألى على الله عز وجل ، ألا يغفر الله له ، لعظم قدر نفسه عنده . وأن الأساءة اليه عند الله عز وجل ــ عظيمة ، لا يغفرها الله تعالى ، لموضع عبادته وسجوده ، لأنه عد نفسه عظيم القدر عند الله ، عز وجل ــ فجمع بين عجب وكبر ، واغترار بالله عز وجل .

ومن المعنيين جميعا ما روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح من صالحى بنى اسرائيل ، فتبعهما رجل خاطىء ، مشهور بالفسق فيهم ، فقعد منتبذا عنهما منكسرا ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، فقال : اللهم اغفر لى . ودعا هذا الصالح وقال : اللهم لا تجمع بينى وبين هذا العاصى ، فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام ، إنى قد استجبت دعاءهما جميعا : رددت ذلك الصالح ، وغفرت لذلك المجرم .

وروى عن الشعبى أيضا عن الخليل بن أيوب : أن رجلا كان فى بنى اسرائيل ، يقال له خليع بنى اسرائيل ، لكثرة فساده ، مر برجل آخر من بنى اسرائيل ، يقال له : عابد بنى اسرائيل ، وعلى رأس العابد غمامة تظله ، فقال الخليع فى نفسه : أنا خليع بنى اسرائيل ، وهذا عابد بنى اسرائيل ، فلو جلست اليه ، لعل الله ــ عز وجل ــ أن يرحمنى به ، فجلس اليه ، فقال العابد فى نفسه : أنا عابد بنى اسرائيل ، وهذا خليع بنى اسرائيل ، يجلس الىَّ ، فأنف منه ، وقال : قم عنى ، فأوحى الله ــ عز وجل الى نبى ذلك الزمن : مُرْهُمَا ، فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد . وفى حديث آخر : فتحولت الغمامة على رأس الخليع .

قال الحرث المحاسبى : وانما أراد الله ــ عز وجل ــ من عباده قلوبهم ، لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم ، فاذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو العاصى وذل ؛ هيبة لله عز وجل وفرقا منه ــ فهو أطوع لله ــ عز وجل ــ من العابد أو العالم بقلبه .

تعقيـــب

المعصية التى تورث الذل والانكسار والافتقار الى الله سبحانه وتعالى ــ خير وأفضل من الطاعة التى يزهو بها صاحبها ، فتورثه العزة والاستكبار .

ذلك : أن الذل والانكسار ، والخضوع والافتقار ــ من صفات العبودية ، وهى تقرب العبد من الله عز وجل .

أما العزة والاستكبار ــ فانهما من صفات الربوبية ، وهما يقودان العبد الى الخذلان

والى الابتعاد عن العزيز الرحمن . وفى هذا المعنى يقول الشيخ « أبو مدين » انكسار العاصى خير من صولة المطيع »

ولأن الهدف من الطاعة هو الخضوع والخشوع ، والانقياد والتذلل ، فاذا خلت الطاعة من هذه المعانى ، و لم تحقق الهدف منها ـــ فالمعصية التى تحقق هذه المعانى ـــ تكون أفضل منها ، لأنه لا عبرة بصورة الطاعة ، ولا بصورة المعصية ، وانما العبرة بما ينتج عنهما .

ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر الى قلوبكم »

ويقول أيضا الرسول صلى الله عليه وسلم « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك : العجب . . .!

الحكمة السادسة عشر بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّار[1] بِالنَّظَرِ فِي مُكَوِّنَاتِهِ[2] ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الْدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ » .

قال ابن عباد :

رؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم ، ففى هذه الدار يرونه ظاهرا فى المكونات بأنوار بصائرهم ، لما تجلى لهم من وراء حجابها ، ولذلك أمرهم بالنظر فيها ، وفى الدار الآخرة يرونه معاينة بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع ، وهذا غاية الظهور والكشف .

تعقيب

أيها العارف بربه : أمرك الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ بالنظر والتأمل فى أكوانه ، والتدبر فى آياته فى الأرض وفى السماوات وفى نفسك ، وذلك لتراه ـــ جل شأنه ـــ بنور بصيرتك ظاهرا فيها من وراء حجاب .

قال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » (من آية ١٠١ من

---

(١) أمرك فى هذه الدار : أى أمرك الله سبحانه وتعالى فى هذه الحياة الدنيا.

(٢) بالنظر فى مكوناته : أى بالتأمل فى أكوانه ، لتراه بنور بصيرتك ـــ من وراء حجاب ـــ فى المكونات التى أمرك بالنظر فيها .

مكوناته : بتشديد الواو المفتوحة ، أى أكوانه .

سورة يونس) وقال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الذاريات)

ولا شك أن تلك الرؤية فى هذه الحياة الدنيا ـــ بمشاهدة آثاره فى أكوانه الدالة على قدرته ـــ تفضل من الله عليك ، وكرامة منه سبحانه وتعالى اليك .

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فسيكشف لك سبحانه عن كمال ذاته ، فتراه فى تلك الدار الآخرة بعين البصر ، كما رأيته فى الدنيا بعين البصيرة .

قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » (الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة) .

وعن أبى موسى الأشعرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى : يا أهل الجنة ـــ بصوت يسمع أولهم وآخرهم ـــ ان الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر الى وجه الرحمن عز وجل » . وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ؟ (من آية ٢٦ من سورة يونس) قال : الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر الى وجه الله عز وجل . (تفسير ابن كثير) .

وفقنا الله ـــ فى هذه الحياة الدنيا ـــ الى النظر والتأمل والتدبر فى أكوانه وآثاره الدالة عليه ، وعلى قدرته ومنَّ علينا ـــ فى الآخرة ـــ بفضله وكرمه بالنظر الى وجهه الكريم .

الحكمة العشرون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« **الصَّلاَةُ مَحَلُ الْمُنَاجَاةِ[1] ، وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ[2] : تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ[3] ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوارِ[4] ، عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ ، فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا[5] ، وعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ ، فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا[6]** » .

قال ابن عباد :

« الصلاة محل المناجاة » لأن فيها يكون محل الثناء والدعاء ، والمناجاة مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار « ومعدن المصافاة » وهى زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك ، حتى يصفو قلبك وسرك ، فيصفو لك ، حينئذ شهوده ، ويمحو ذاتك وجوده و « تتسع فيها ميادين الأسرار » حتى تتكاثر عليك فى الظهور

---

(١) الصلاة محل المناجاة : المناجاة : هى المسارة مع الأحباب . فمناجاة العبد لربه تكون بالتلاوة والأذكار والدعاء . . الخ .
ومناجاة الرب لعبده تكون بالتفهم والفتح ورفع الأستار .

(٢) ومعدن المصافاة : المصافاة خلوص المناجاة ، فهى أرق وأصفى من المناجاة .
ومصافاة العبد لربه ــ بتوجهه إليه بكليته ، واقباله عليه .
ومصافاة الرب لعبده ــ بالاقبال عليه ، حتى لا يدعه لغيره .

(٣) تتسع فيها ميادين الأسرار : أى تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين .
أى تنشرح بتوارد الأسرار التى تتسابق اليها .

(٤) تشرق فيها شوارق الأنوار : أى تطلع فيها الأنوار الشبيهة بالكواكب .

(٥) قلل عددها : أى جعل الخمسين خمسا .

(٦) كثر امدادها : أمداد : جمع مدد . وهو الثواب والجزاء ، فجعلها خمسا فى الفعل ، وخمسين فى الأجر ؛ فالحسنة بعشر أمثالها .

« وتشرق فيها شوارق الأنوار » فيكون قلبك نورا على نور ، وهذه العبارات الست معانيها متقاربه[1] . ولما كانت هذه الأحوال التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى ــ من فوائد الصلاة ، وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها ــ كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو اقامة الصلاة ، لا وجود الصلاة ، فان الصلاة المعتبرة ــ انما هى صلاة الخاشعين ، لا صلاة الغافلين التى لاتنتهض لبلوغ هذه المقاصد السنية ؛ ولذلك كانت الصلاة أُمَّ العبادات ، وأساس الخيرات ، قال الله تعالى : « وأقم الصلاة لذكرى »[2]

فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر ، وقد روى معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إنما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج والطواف ، وأشعرت المناسك ، لاقامة ذكر الله »

ولذلك كانت قرة عين حبيب الله صلى الله عليه وسلم ، على ما سيأتى الكلام عليه حيث تعرض المؤلف له .

وفى بعض الأخبار : « أن العبد اذا قام الى الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى السماء ، يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وان المصلى لينشر عليه البرُّ من عنان السماء الى مفرق رأسه ، وينادیه مناد : لو يعلم المناجى من يناجى ما انفتل[3] ، وأن أبواب السماء تفتح للمصلى ، وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين » .

وفى التوراة : يابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدىَّ مصليا باكيا ، فأنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى . وكانوا يَرَونَ أن تلك الرقة والبكاء ، وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه ــ من دُنو الرب من القلب . وقال محمد بن على الترمذى رضى الله تعالى عنه : دعا الله تعالى الموحدين الى هذه الصلوات الخمس ، رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات ؛ لينال العبد من كل فعل وقول شيئا من عطاياه .

---

(١) يشير بذلك الى فائدتين أخريين من فوائد الصلاة ، وردتا فى الحكمة السابقة حيث يقول : « الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب .

(٢) من آية ١٤ من سورة طه .

(٣) انفتل : انصرف .

فالأفعال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة ، وهى عرس الموحدين ، هيأها رب العالمين ، لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات ، حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار .

وقال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه : حدثت : أن المؤمن اذا توضأ ـــ تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرض خوفا منه ، لأنه تأهب للدخول على الملك ، فاذا كبَّر ـــ حجب عنه ابليس ، ضرب بينه وبينه سرادق ، لا ينظر اليه ، وواجهه الجبار بوجهه الكريم ، فاذا قال : الله أكبر ـــ اطلع الملك على قلبه ، فاذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله ، فيقول الملك : صدقت ، الله أكبر فى قلبك كما تقول .

قال : فيتشعشع من قلبه نور ، يلحق بملكوت العرش ، فيكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات .

قال : وإن الغافل الجاهل اذا قام الى الوضوء ـــ احتوشته الشياطين ، كما يحتوش الذباب نقطة العسل ، فاذا كبَّر ـــ اطلع الملك على قلبه ، فاذا كل شىء فى قلبه أكبر من الله عنده ، فيقول الملك : كذبت ، ليس الله أكبر فى قلبك كما تقول !

قال : فيثور من قلبه دخان ، يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت .

قال : فيُرَّد ذلك الحجاب صلاته ، وتلتقم الشياطين قلبه ، فلا تزال تنفخ فيه ، وتنفث وتوسوس اليه ، وتزين له ، حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه .

ومعانى هذه الأخبار والآثار موافقة لمعنى ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ، دالة عليه ، فلذلك أوردتها هنا ، والله ولى التوفيق برحمته .

(علم وجود الضعف منك ، فقلل أعدادها ، وعلم احتياجك الى فضله ، فكثر أمدادها) .

فهذا من فضل الله تعالى الذى عوّده عبده ، فتقليل أعدادها : بأن جعل الخمسين خمسا ؛ وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه .

وتكثير أمدادها : بأن جعل للخمس ثواب الخمسين ، وذلك فضل منه عليه ، اذ كان محتاجا إليه ، فله الحمد والشكر على ذلك ، وهذه المعانى مذكورة فى حديث الإسراء .

تعقيـــب

فى هذه الحكمة ، وفى سابقتها (الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة) يعدد ابن عطاء الله : نتائج الصلاة ، وثمرتها المرجوة .

ففى الحكمة السابقة يشير الى أن : الصلاة طهارة للقلوب ، واستفتاح لباب الغيوب وهنا يشير الى أن : الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، وتتسع فيها ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار .

ثم يتبع ذلك بذكر الحكمة فى حصر الصلوات فى خمس ، حيث يقول : « علم وجود الضعف منك ، فقلل عددها » وذلك بأن جعلها خمسا بعد أن كانت خمسين وهذا من فضل الله ، ورحمته بعباده .

ثم يبين جزيل الثواب ، وعظيم العطاء ، حيث يقول : « وعلم احتياجك الى فضله فكثر أمدادها » فقد جعل كل صلاة بعشر صلوات ، فى الثواب والأجر ، فهى خمس فى العدد ، وخمسون فى الثواب والجزاء . والله ذو الفضل العظيم .

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذلك بقوله : « هُنّ خمس ، وهن خمسون ، ما يبدّل القول لدىّ ، الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وأغفر . . الحديث » .

وهذا بالاضافة الى فضل صلاة الجماعة التى يتضاعف فيها الثواب والجزاء الى خمس وعشرين درجة » أو الى سبعة وعشرين درجة .

كما تتفاوت الدرجات أيضا بقدر البقاع والأماكن وفضلها ، وذلك كالصلاة فى البيت الحرام ، وفى المسجد النبوى ، وفى بيت المقدس ، وقد أشارت الى ذلك الأحاديث .

وهذا كله من فضل الله ورحمته ، : « والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (من آية ١٠٥ من سورة البقرة) .

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » (آية ١٧ من سورة السجدة) .

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« السَّتر عَلَى قِسْمين : سترٌ[1] عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَسْتُر فِيهَا[2] ، فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ تَعَالَى السَّتْرَ فِيهَا ، خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الْخلْقِ[3] ، وَالْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ الْسَتْرَ عَنْهَا ، خَشْيَةَ سُقُوطِهِم مَنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ[4] »

قال ابن عباد :

العامة يغلب عليهم شهود الخلق ، والتصنع والتزين لهم ، ومحبة حمدهم وكراهية ذمِّهم ، فهم يعملون المعصية ، ويستخفون بها ــ ويطلبون الستر من الله عليهم فيها ، أى فى حال كونهم عاملين بها ؛ لئلا يراهم الخلق ، فيسقطوا من أعينهم ، وفى أمثالهم قال الله عز وجل :

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيِّتون مالا يرضى من القول[5] . قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : فى هذه الآية : الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ، ولا يشعرون أن الحق مطلع عليهم ، أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة .

---

(١) الستر : الحفظ والتغطية .
ستر عن المعصية : أى بالحفظ منها ، والمنع عنها ، وعدم تهيئة أسبابها .
(٢) ستر فيها : أى مع فعلها ، وذلك بألا يظهرها للناس حال فعلها ، أو بعده .
(٣) خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق : أى يطلبون ذلك من أجل خشية سقوط منزلتهم عند الناس اذا اطلعوا عليهم .
(٤) خشية سقوطهم من نظر الملك الحق : أى خشية سقوط منزلتهم عند الملك الحق ، وذلك عند مخالفتهم له ، وتعرضهم لسخطه .
(٥) من آية ١٠٨ من سورة النساء .

روى عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة ، حتى إذا دَنَوا منها ، ونظروا اليها ، واستنشقوا ريحها ، وما أعد الله لأهلها ـــ نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب لهم فيها .

قال : فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها ! فيقولون : يا ربنا ، لو أدخلتنا النار ، قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت فيها لأوليائك ـــ كان أهون علينا !

قال : ذلك أردت بكم . كنتم اذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين[1] ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلّونى ، وركنتم الى الناس ولم تركنو الىّ فاليوم أذيقّكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب .

وفى بعض الكتب المنزلة : إن لم تعلموا أنى أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن علمتم أنى أراكم ، فلم جعلتمونى أهون الناظرين اليكم !؟

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[2] ـــ هو الرجل تمر به المرأة فى القوم ، فيريهم أنه يغض بصره عنها ، ويودُّ أنه يطلع على عورتها ، ويقدر عليها .

وقال فى رواية أخرى : هو الرجل يكون فى القوم ، فتمر بهم المرأة ، فيريهم أنه يغض بصره عنها ، فاذا رأى من القوم غفلة ـــ لحظ اليها ونظر ، فاذا خاف أن يفطنوا ، غض بصره عنها ، فقد أطلع الله ـــ عز وجل ـــ على قلبه : أنه يودّ لو نظر الى عورتها ، وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ، ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار .

والخاصة من أهل الايمان واليقين : برآء من هذا الوصف الذميم :

لا التفات لهم الى الخلق مدحا ولا ذما ، وهمتهم مصروفه عن النظر اليهم ، والاعتماد عليهم فى نفع أو دفع ضرّ ، وحالهم انما هو القناعة بعلم الله تعالى ، ومراقبة

---

(١) مخبتين : خاشعين مطمئنين .

(٢) آية ١٩ من سورة غافر .

نظره ، فهم يطلبون الستر من الله عنها فى أن يغيبها عن نظرهم ، ولا يخطرها بقلوبهم فتميل اليها أنفسهم ، فيعملون بها ، فيقعون فى مخالفة ربهم ، والتعرض لسخطه والسقوط من عينه ، وشتان ما بين الحالين !

والى هذا المعنى أشار سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : فى دعائه بقوله : اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ، ومن التفكر فى طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها ، واستبدلها بالكراهة لها ، والطعم لما هو بضدِّها .

تعقيـــب

العامة من الناس يطلبون من الله تعالى ــ الستر فى المعصية ، خوف اطلاع الناس عليهم حال المعصية أو بعدها ، حتى لا يفضح صاحبها ، فهم يخشون الناس ولا يخشون الله ، وهم : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » والله سبحانه وتعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وهؤلاء هم الذين يعتمدون على غيرهم ، ويراءون الناس ، وهم أهل النفاق : أهل الشرك الخفى .

أما الخاصة من الناس ــ فهم يطلبون من الله تعالى ــ الستر عن المعصية ، وذلك بأن يحول بينهم وبين الوقوع فيها ، ويجعل بينهم وبينها حاجبا ، وذلك خشية سقوطهم من نظر الله تعالى .

وشتان ما بين هذين الحالين ، وشتان ما بين الفريقين : العامة ، والخاصة !

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ ، لِماَ يَظُنُّونَهُ فِيكَ[1] ـــ فَكُنْ أَنْتَ ذَامًّا لِنَفْسِكَ ، لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا[2]

قال ابن عباد :

ذمُّ العبد لنفسه ، واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها ـــ مطلوب منه ، لأن ذلك يؤديه الى الحذر من غروزها وسرورها ، فتصلح بسبب ذلك أعماله ، وتصدق أحواله والا فسدت عليه ، واعتلت لدخول الآفات عليها ، ولا يصدّنه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له ، لأنه يعلم من عيوب نفسه مالا يعلمه غيره .

ثم انهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له ، وحسن الظن به ، فينبغى أيضا أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه ، وسوء اعتقاده فيها .

قال بعضهم : من فرح بمدح نفسه ـــ فقد أمكن الشيطان أن يدخل فى بطنه .

وقال آخر : اذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب اليك من أن يقال : بئس الرجل أنت ـــ فأنت والله بئس الرجل !

وقيل لبعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم : لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم ، فغضب ، وقال : انى لأحسبك عراقيا .

---

(١) الناس يمدحونك ، لما يظنونه فيك : أى يمدحونك بالخير والصلاح ، لما يظنونه فيك من حميد الخصال وجميل الصفات .

(٢) فكن أنت ذاما لنفسك ، لما تعلمه منها : أى لا تغتر بمدح الناس لك ، وثنائهم عليك ، فأنت أعلم بنفسك . بل يجب أن تذم نفسك على اتصافها بخلاف مايظنه الناس فيك .

وقال بعضهم لما مدح : اللهم إن عبدك تقرّب إلىّ بمقتك ، فأشهدك على مقته .
وقال آخر : اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ، ولا تؤاخذنا بما يقولون ، واغفر لنا مالا يعلمون .

قال الامام ابو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه : وانما كرهوا المدح ، خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق ، وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بجاههم عند الله يبغض اليهم مدح الخلائق ، لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى ، والمذموم على الحقيقة هو المبعد عند الله تعالى ، الملقى فى النار مع الأشرار . فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار ــ فما أعظم جهله ، اذا فرح بمدح غيره ، وان كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح الا بفضل الله تعالى ، وثنائه عليه ، اذ ليس أمره بيد الخلق ، ومهما علم أن الارزاق والآجال بيد الله تعالى ــ قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح ، واشتغل بما يهمه من أمر دينه . انتهى كلام أبى حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه .

تعقيـــب

أيها العبد المؤمن : اياك والغرور بمدح الناس لك ، وثنائهم عليك ، لما يظن فيك من الصفات الجميلة ، والخصال الحميدة ، فأنت أعلم بنفسك من جميع الناس « بل الانسان على نفسه بصيرة » (آية ١٤ من سورة القيامة) .

وانما يجب عليك أن تلوم نفسك ، وتذمها ، لما اتصفت به من صفات ، تغاير ما يظن الناس فيك .

ولذلك يقول الامام على كرم الله وجهه : « اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ، ولا تؤاخذنا بما يقولون ، واغفر لنا مالا يعلمون »

ولا شك أن المبالغة فى المدح والغلو فيه ــ دليل الكذب ، وذلك منهى عنه ، والى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « احثوا التراب فى وجوه المداحين » وقوله عليه الصلاة والسلام : « اياكم والمدح ؛ فانه الذبح »

وقوله عليه الصلاة والسلام لمن مدح رجلا عنده : « قطعت عنق صاحبك » وقد ذم الله قوما ، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فقال تعالى : « لا تحسبن الذين

يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » (آية ١٨٨ من سورة آل عمران) .

قال « ابن عجيبة » : أهل الفهم عن الله يستمعون الى الخطاب ، فاذا سمعوه مدحهم بشيء نظروا ، فاذا كان فيهم ـــ علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر ـــ وان لم يجدوه فيهم ـــ علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام ، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قوما يمدحونه بقيام الليل كله وكان لا يقوم الا نصفه ـــ جعل يقوم الليل كله .

الحكمة السبعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« عَلِمَ أَنَّ العِبَادَ ــ يَتَشَوَّفُون[1] إِلَى ظُهُورِ سِرِّ[2] الْعِنَايَةِ ، فَقَالَ : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) . وَعَلِمَ أَنَّهُ ــ لَوْ خَلاَّهُمْ وَذَلِكَ[3] ــ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ ، اعْتِمَاداً عَلَى الأَزَلِ[4] فَقَالَ : (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ) .

قال ابن عباد :

ظهور سر العناية التى مقتضاها الرحمة ــ هو تخصيص المشيئة فى قوله عز من قائل : « يختص برحمته من يشاء »[5] ــ ولا علة له من البعد والاحسان المنسوب اليه فى قوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنين »[6] ــ أمارة وعلامة على تلك العناية ، وليس بعلة موجبة . وإنما أسند الرحمة اليه ، وعلقها به ، لئلا يتكل العباد على السابقة ، ويتركوا العمل ، الذى هو مقتضى العبودية لله تعالى عليه .

---

(١) يتشوفون : يتطلعون .

(٢) السر : هو الشيء الخفى .

وسر العناية : تعلق الارادة بحصول ذلك السر فى المستقبل .

(٣) لو خلاهم وذلك : أى تركهم ، وملاحظتهم أن العناية الأزلية تختص ببعض الناس ، وليست عامه .

(٤) اعتمادا على الأزل : أى على ما سبق فى علم الله .

(٥) من آية ١٠٥ من سورة البقرة .

(٦) من آية ٥٦ من سورة الاعراف .

تعقيـــب

الأعمال الصالحة ـــ أمارة وعلامة على ظهور سر العناية الإلهية ، ولهذا لا ينبغى ترك الأعمال ، اعتمادا على ما سبق فى علم الله أزلا .

فمن ترك العمل اعتمادا على الأزل ـــ فهو مغرور ، ذلك أن سر العناية ـــ إنما يكون للمحسنين فى عبادة ربهم ، والمخلصين فى أعمالهم ، ولهذا قال تعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين »

وكذلك لا ينبغى التطلع الى ظهور سر العناية الالهية ، وطلب ذلك بالدعاء والأعمال الصالحة ، والاعتماد على ذلك ، واعتقاد تأثيره فى حصول ذلك السر ، وذلك لأن سر العناية ـــ ليس عاما لجميع الناس ، وإنما هو خاص ببعض الناس ؛ ولذا يقول الله تعالى : « يختص برحمته من يشاء »

فعلى المريد : أ ن يجمع بين العمل والاحسان والاخلاص ـــ وبين التطلع إلى سر العناية . ولا ينبغى للمؤمن ترك العمل ؛ اعتمادا على ما سبق فى الأزل ، فرحمة الله قريب من المحسنين ، كما لا ينبغى للمؤمن أن يعتمد على المشيئة وحدها ويقف عند ذلك ، فالله يختص برحمته من يشاء .

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« قَيَّدَ الطَّاعَاتِ ــ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ ؛ كَيْ لاَ يَمْنَعَكَ عَنْهَا ــ وُجُودُ التَّسْوِيف ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الْوَقْتَ ؛ كَيْ تَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الإِخْتِيارِ »

قال ابن عباد :

أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات الموقَّته بالأوقات ــ بنعمتين عظيمتين :

إحداهما : تقييدها لك بأعيان الأوقات ، لتوقعها فيها ، فتفوز بثوابها ، ولو لم يفعل هذا ــ لسوَّفتَ بها ، ولم تعمل بها ، حتى تفوت ، فيفوتك ثوابها .

والنعمة الثانية : توسيع أوقاتها عليك ، ليبقى لك نصيب من الأختيار ، حتى تأتى بالطاعات فى حال سكون ، وتمهل ، من غير حرج ولا ضيق ، فلله الحمد على نعمه .

تعقيـــب

فرض الله على عباده بعض الأحكام والفرائض ، كالصلاة مثلا ، وحدد لها أوقاتا معينة تؤدى فيها . قال تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (من آية ١٠٣ من سورة النساء) . ولما كان من طبيعة النفس البشرية تأخير الأعمال ، وتطويل الآمال ــ أنعم الله علينا بنعمتين عظيمتين .

النعمة الأولى : تقييد الطاعات والعبادات بأوقات معينة ، تؤدى فيها ، وعدم اطلاق هذا الوقت ، حتى يمنع التسويف والتأخير فى أدائها ، فيفوت ثوابها .

النعمة الثانية : توسيع وقت الطاعات . رأفة بالعباد ، ورحمة بهم ، وتيسيرا لهم ونفيا للحرج ، والاضطرار عنهم .

وذلك كى يتسنى لهم حرية اختيار الوقت المناسب ، لأداء هذه الطاعات ؛ وبهذا تؤدى هذه الفرائض على أكمل وجه .

لأن الوقت اذا كان متسعا ـــ اختار العبد منه ما يلائمه ، لأداء هذه الفرائض ، وتخلى عن الشواغل التى تحول بينه ، وبين استجماع فكره وحضوره بقلبه مع الله حال العبادة .

وحينئذ ، يؤدى المؤمن هذه الطاعات ، بنفس هادئة ، وقلب مطمئن ، واقبال على الله .

وفى الوقت نفسه لا تمنعه هذه الطاعات عن مواكبة حركة عمله فى الحياة ، اذ إنه يمكنه أداؤها فى أول الوقت ، أو فى وسطه أو فى آخره .

وبذلك يجمع المؤمن بين خيرى الدنيا والآخرة .

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ[1] عَلَيْكَ ؛ لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ[2] »

قال ابن عباد :

الظُّلَمُ أضداد الأنوار ، فما من نور الا وفى مقابلته ظلمة ، وكل ظلمة على قدر نورها ، والشيء يعرف بضده ، كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء . فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة فى ليالى الهجر والفرقة ــ فإنما ذلك ؛ ليعرفك قدر ما من عليك من أنوار التجلى والحضور فى نهاية القربة والوصلة ، فجميع ذلك نعم سابغة عليك ، من غير علم منك بذلك .

تعقيـــب

قد يأتى الخير من الشر ، وقد تكون النقمة نعمة .

نعم ، فقد يكون ما يرد عليك من الشهوات والمعاصى والغفلات ــ ليعرفك الله ــ سبحانه وتعالى ــ حال ورودها ــ قدر ما تفضل به عليك من قبل من الهداية والتوفيق والانوار ، والإقبال عليه ، فتحمد الله على ذلك ، فتكون تلك نعمة عظيمة .

---

(١) الظلم : جمع ظلمة : ضد النور ، والمراد : الشهوات والمعاصى والغفلات .

(٢) ليعرفك قدر ما من به عليك : منَّ : يقال : من عليه منا : أنعم عليه نعمة طيبة ، ومن الله على عباده فهو المنان .

: أى ليعرفك الله سبحانه وتعالى حال ورودها ــ قدر ما تفضّل به ، وأنعم به عليك من قبل من الأنوار والإقبال عليه ، فتحمده عليها .

وقد يكون ورود تلك الظلم عليك ـــ بسبب ما حدث منك من الأعجاب بطاعتك ، فأوردها عليك ، لتعرف قدرك ، وتضع نفسك موضعها الحقيقى وهذه نعمة أيضا .

وقد تكون هذه الظلم التى تتوالى عليك ، عقوبة وامتحانا لك ، حين لاتوفق للتوبة ولا تعتقد التقصير من نفسك .

قال الشيخ « زروق » فى شرحه : ابتلاء العبد بالشهوات والغفلات والمعاصى ـــ تارة يكون طردا ، وتارة يكون تأديبا ، وتارة يكون تقريبا : فاذا أثمرت إنابته ـــ كانت تقريبا ، واذا أثمرت انكسارا وتذكيرا ـــ كانت تأديبا ، واذا أثمرت تعلقا بها كانت طردا » .

الحكمة المائتان

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ[1] عَنْ الْقِيامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ[2] ــ فَانَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ[3] .

قال ابن عباد :

اذا ترادفت نعم الله تعالى عليك ، فلا ينبغى أن تدهشك عن القيام بشكرها ، من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك ، وأن لا قبل لك به فتتركه ، فإن الله تعالى رفع قدرك ، وأعلى أمرك ، وجعل القليل منك كثيرا ، وأشهدك من حسن توليه لك ، ونسبة أفعالك اليه ــ ما يؤذن بعظم سيادتك ، ورفعة قدرك ، فَلِمَ تبخس نفسك حقها !؟ وتحطها عن قدرها !؟ فتراها عاجزة عن الشكر ، والقيام بمقتضى الأمر لا على وجه الأدب ، والاتيان من الشكر بما وجب ، كأن الأمر فى ذلك إليها ! .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ما من نعمة الا والحمد لله ــ أفضل منها ، والنعمة التى ألهم بها الحمد ــ أفضل من الأولى ، لأن الشكر يستوجب المزيد .

وفى أخبار داود عليه السلام : إلهى . ابن آدم ليس فيه شعرة الا وتحتها نعمة ، وفوقها نعمة ! فمن أين يكافئك !؟

---

(١) واردات النعم : النعم الواردة أى المتتابعة والمترادفة عليك .

(٢) بحقوق شكرك : أى شكر المولى عليها ، فهو المتفضل بها .

(٣) فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك : أى أن ترك الشكر ــ يحط من قدرك .

فأوحى الله تعالى اليه : ياداود . إنى أعطى الكثير ، وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك : أن تعلم أن ما بك من نعمة ــ فمنى ؟!

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إنى بأرض كثرت فيها النعم ، حتى لقد أشفقت علىّ من قبل ضعف الشكر !

فكتب اليه عمر : إنى كنت أراك أنك أعلم بالله ، فما أنت !

إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة ، فحمد الله عليها ــ الا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لا تعرف ذلك الا فى كتاب الله المنزل ، قال تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين[1] ،

وقال تعالى : « وسيق الذين اتقو ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده[2] . . . الخ .

وأى نعمة أعظم من دخول الجنة .

تعقيـــب

أنعم الله على عباده ، بنعم كثيرة ، لا تعد ولا تحصى » وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

فيأيها العبد المؤمن ــ اذا وجدت نفسك مغمورا بنعمه ــ عز وجل ــ فلتبادر الى شكره على هذه النعم ، ولا تتوان عن القيام بحق المنعم فيما أنعم به عليك ولا تبخس نفسك حقها ، ولا تحط من قدرها بترك الشكر ، فقد رفع الله قدرك ، فجعل القليل منك كثيرا ، وادخر لك عليه جزاء كبيرا ، « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

كما أن الشكر يزيد النعم « لئن شكرتم لأزيدنكم »

---

(١) آية ١٥ من سورة النمل .

(٢) آية ٧٣ ، ٧٤ من سوة الزمر .

ومن شكر النعم : القيام بحق الله فيها ، والاعتراف بالنعمة « وأما بنعمة ربك فحدث » ..

كما أن الإقرار بأنها من عند الله ــ نوع من الشكر « وما بكم من نعمة فمن الله » . كذلك من شكر النعمة ــ حمد الله عليها « الحمد لله رب العالمين » . « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » ، « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » .

الحكمة الحادية بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« تَمَكُّنُ حَلاَوةِ الْهَوىَ مِنْ الْقَلْبِ[1] ــ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ[2]

قال ابن عباد :

القلب محل الايمان والمعرفة واليقين ، وهذه هى الأدوية لأمراضه ، التى أوجبها وجود الهوى والشهوة ، فإذا تمكن الداء من القلب ــ لم يبق للدواء محل ، فلذلك أَعضَلَ أَمْرُهُ ، وتَعذر بُرْؤُهُ .

تعقيـــب

«حلاوة الهوى على قسمين : هوى النفس ، وهوى القلب »

فهوى النفس : يرجع لشهواتها الجسمية : كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمساكن .

وهوى القلب : هو شهواته المعنوية : كحب الجاه والرياسة والعز .

فأما علاج هوى النفس ــ فأمره قريب ، ويمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك ، والزهد وصحبة الاخيار .

---

(١) التمكن من القلب : هو الاستقرار فيه .

الهوى : ميل النفس ، والمراد به : المهوى ، وهو الشهوات الدنيوية . حلاوة الهوى : لذته المدركة بالوجدان ، وتمكنها من القلب : رسوخها فيه .

(٢) الداء العضال : هو ما يتعذر برؤه ويصعب شفاؤه . يقال : داء عضال لا طب له .

وأما علاج هوى القلب اذا تمكن ــ فهو صعب ، وهو الداء العضال الذى أعضل الأطباء ، أى أعجزهم ، وحبسهم عن علاجه ، فلايزيده الدواء الا تمكنا وإنما يحرجه وارد إلهى ، بعناية سابقة بواسطة أو بغير واسطة ، كما أشار الى ذلك « ابن عطاء الله » بقوله : « لا يخرج الشهوة من القلب الا خوف مزعج ، أو شوق مقلق »

(مما قاله « ابن عجيبة » فى « ايقاظ الهمم »

هذا وقد قال بعضهم : « نحت الجبال بالأظافر ــ أيسر من زوال الهوى اذا تمكن » وصدق الله العظيم اذ يقول : « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » (آية ٢٣ من سورة الجاثية)

الحكمة الثالثة بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« كَمَا لا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَرِكَ ــ كَذَلِكَ لا يُحِبُّ الْقَلْبَ الْمُشْتَرِكَ : الْعَمَلُ الْمُشْتَرِكُ لا يَقْبَلُهُ ، والْقَلْبُ الْمُشْتَرِكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْه »

قال ابن عباد :

العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع ، والقلب المشترك هو الذى فيه محبة غير الله تعالى والسكون اليه ، والاعتماد عليه ، فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه الى الناس ، والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه الى نفسه .

فالعمل المشترك لا يحبه ولا يقبله ، ولا يثيب عليه ، لفقد الاخلاص منه ، والقلب المشترك لا يحبه ، ولا يقبل عليه ، ولا يرضى عنه ، لعدم وجود الصدق فيه .

فمن صحح أعماله بالاخلاص ، وأحواله بالصدق ــ كان محبوبا لله تعالى ، مثابا مرضيا عنه ، والا فلا .

تعقيـــب

الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون القلب كذلك خالصا له سبحانه .

ولذا ، فالعمل المشترك ــ المشوب بالرياء أو التصنع أو العجب أو طلب العوض ــ لا يثيب الله صاحبه عليه ، لعدم اخلاصه فيه .

وكذلك القلب المشترك الذى يحب غير الله ، ويسكن اليه ، ويعتمد عليه ، لا يرضى الله عن صاحبه ، ولا يثيبه ، لعدم وجود الصدق منه .

قال تعالى : « فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص » (من آية ٢ ، ٣ من سورة الزمر)

وقال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه ــ فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (آية ١١٠ من سورة الكهف) .

وفى الحديث يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى ــ تركته وشريكه » .

الحكمة الثامنة بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ ــ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ، وَحُقُوقُ الأَوْقَاتِ ــ لاَ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلاَّ وَلله عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ ، وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ؛ فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ الله فِيه !؟ »

قال ابن عباد :

الحقوق الكائنة فى الأوقات ، هى وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما ، فمن فاته شيء منها فى وقته المعين ــ أمكنه قضاؤه فى وقت آخر ، اذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب ، فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق ، والحقوق المضافة الى الأوقات ــ هى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد ، وواردات قلبه المتلونة عليه ، ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك .

فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه ، اذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به ــ وارد يرد عليه ــ حق جديد وأمر أكيد ، ولا يسعه الا أن يوفيه اذ ذاك . فان فاته لم يجد مجالا لقضائه ، ولا يمكنه ذلك .

فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه ؛ حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنه قضاؤها ان فاتت .

قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه : أوقات العبد أربعة ، لا خامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، ولله عليك فى كل منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية .

فمن كان وقته الطاعة ــ فسبيله شهود المنّة من الله عليه أن هداه لها ، ووفقه للقيام بها .

ومن كان وقته المعصية ــ فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ، ومن كان وقته النعمة ــ فسبيله الشكر ، وهو فرح القلب بالله ، ومن كان وقته البلية ــ فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الله ، والصبر مشتق من الإصبار ، وهو نصب الغرض للسهام ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء ، فان ثبت لها ــ فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدى الرب .

وفى الحديث عن رسول ﷺ : « من أعطى فشكر ، وابتلى فصبر ، وظُلِمَ فغفر ، وظَلَمَ فاستغفر ، ثم سكت رسول الله ﷺ ، فقالوا : ماذا له يا رسول الله ؟ فقال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون « أى لهم الأمن فى الآخرة وهم المهتدون فى الدنيا .

تعقيـــب

الحقوق التى فى الأوقات ــ هى الطاعات التى عين الله لها وقتا محدودا ، كالصلوات الخمس ، فإن خرج وقتها ــ أمكن قضاؤها .

وأما حقوق الأوقات ــ فهى مراقبة الحق ، أو مشاهدته ، كل على قدر وسعه : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ، « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » .

وهذه الحقوق اذا فات وقتها ــ لا يمكن قضاؤها ، فما من لحظة ــ الا ويجب عليك فيها أن تكون عاملا لله ، مشتغلا فيها ، بما يوصلك الى قربه ورضاه . فكل وقت له حق ، فإن فات ــ فلا قضاء له .

واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام ــ يكاد أن يكون متعذرا فى حق البشر . قال تعالى : « وماقدروا الله حق قدره »

لكن الله قد « يختص برحمته من يشاء » (مما قاله ابن عجيبة فى ايقاظ الهمم) .

الحكمة الحادية عشر بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ، وَإِنَّمَاَ أَمَرَكَ بِهَذِهِ ، وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ ــ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ »

قال ابن عباد :

الحق تعالى غنى عن أعمال العاملين ؛ لأنه منزه عن الأعواض والأغراض ، فلا تنفعه طاعتك ، ولا تضره معصيتك ، وانما أمرك ونهاك ، لما يعود عليك من المصالح والمنافع فى الدارين ، لا غير . وذلك على سبيل التفضل منه ، من غير ايجاب عليه ، وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله : « عجب ربك من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل » .

قال فى لطائف المنن : اعلم رحمك الله : أن الله لم يأمر العباد بشىء وجوبا ، أو يقتضيه منهم ندبا ــ الا والمصلحة لهم فى ذلك الأمر ، ولم يقتض منهم ترك شىء ، تحريما أو كراهة ــ الا والمصلحة لهم فى ترك ما أمرهم بتركه وجوبا ، أو ندبا ، ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى : إنه يجب على الله رعاية مصالح عباده . بل نقول : ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضل ، فليت شعرى اذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده ! .

فمن هو الموجب عليه ؟ ثم اذا نظرنا فرأينا كل ما هو واجب أو مندوب اليه ــ يستلزم الجمع على الله ، وكل منهى عنه أو مكروه ــ يتضمن التفرقة عنه .

فاذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه ، لكن الطاعات هي أسباب الجمع

ووسائله ؛ فلذلك أمر بها ، والمعصية هى أسباب التفرقة ، ووسائلها ؛ فلذلك نهى عنها .

تعقيـــب

الحق سبحانه وتعالى ـــ غنى عن كل شىء ، مفتقر اليه كل شىء ، قال تعالى « يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » (آية ١٥ من سورة فاطر) . وهو ـــ جل شأنه ـــ لا تنفعه طاعه الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وانما أمر بالطاعة ؛ ليقرب العباد اليه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » (من آية ٥٦ من سورة الاعراف) .

ونهى عن المعصية ، لما فيها من البعد عن الله ، والضرر بالعباد .

فالعبد مفتقر الى الله دائما ، وعبوديته لله ، وطاعته له ـــ يجنى منها أعظم الفوائد ويتعرض بها لنفحات الرحمة ، ويظفر بها بخيرى الدنيا والآخرة .

فلتشكر ـــ أيها العبد ـــ ربك على نعمة الطاعة ، ولتعلم أنه « لا يزيد فى عزه اقبال من أقبل عليه ، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه » .

ففى الحديث القدسى : « لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ـــ كانوا على أتقى قلب رجل واحد ـــ مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم ـــ كانوا على أفجر قلب رجل واحد ـــ ما نقص ذلك من ملكى شيئا » .

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً[1] ــ فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقاً : إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلا عَنْ رِفْعَةٍ فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ رِفْعَةً[2] ــ فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ حَقاً[3] .

قال ابن عباد :

اثبات التواضع ــ يقتضى وجود الرفعة لا محالة ، اذ لو كانت معدومة ــ لكان ضدها ، وهو الضعة ــ ثابتا موجودا ، ولا ينتفى عن العبد التكبر ــ الا بوجود الضعة ، ووجود الضعة لا يحتاج الى الاثبات من العبد ، لأنه ثابت فى نفسه .

فالتواضع الذى أثبته العبد لنفسه ــ لا ينفى عنه وجود التكبر بالضرورة ، وأيضا فإن لفظة التواضع ــ تؤذن بذلك ، فان التواضع ــ تفاعل من الضعة ، وأكثر باب التفاعل ــ موضوع لاظهار الصفة ، وليست كذلك ، كالتناوم والتناكر والتفارح والتماوت وغير ذلك .

فصيغة التواضع لا تقتضى حقيقة الضعة ، وعدم الرفعة ، ولا يلزم من وجودها ذلك .

---

(١) التواضع : هو مجاهدة النفس فى وضعها وسقوطها ، فهى تريد الرفعة ، وأنت تريد السقوط .
من أثبت لنفسه تواضعا : أى من خطر بباله أنه متواضع .
اذا ليس التواضع الا عن شهود رفعة : اى ليس التواضع الذى أثبته لنفسه ناشئا الا عن شهود رفعة ، كان يستحقها ، وأنه تنازل عنها ، وذلك هو عين التكبر .

(٢) فمتى أثبت لنفسك رفعة : أى فى ضمن إثبات التواضع (وفى بعض النسخ : فمتى أثبت لنفسك تواضعا)

(٣) فأنت المتكبر حقا : لأنك جعلت لنفسك قدرا زائدا على خلق الله .

والمطلوب من العبد ــ انما هو أن يتصف بذلك حقيقة ، لا إظهاراً فقط ، بأن ينتفى عنه وجود الرفعة بالكلية ، وحينئذ يبرأ العبد من التكبر ، ولا يكون له وجود البتة .

تعقيـــب

من أثبت لنفسه تواضعا ، ورأى أنها تواضعت دون قدرها ــ فهو المتكبر حقا ، إذ ليس التواضع ، واثباته للنفس الا عن رفعة لها أولا .

وأنت لا تكون متواضعا ، حتى ترى الأشياء كلها مثلك ، أو أحسن منك ، وألا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة .

وقد أشار ابن عطاء الله فى حكمة تالية الى التواضع الكامل ، والمتواضع الحقيقى حيث قال : « ليس المتواضع الذى اذا تواضع ــ رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذى اذا تواضع ــ رأى أنه دون ما صنع »

وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه : ما دام العبد ينظر أن فى الخلق من هو شر منه ــ فهو متكبر . قيل : فمتى يكون متواضعا ؟ قال : اذا لم ير لنفسه حالا ولا مقاما .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : « انما الكرم التقوى ، وانما الشرف التواضع ، وانما الغنى اليقين ، والمتواضعون فى الدنيا ــ هم أصحاب المنابر يوم القيامة . اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة ، ولا يزيد التواضع العبد الا رفعة ، فتواضعوا ؛ ليرفعكم الله ، واذا رأيتم المتواضعين من أمتى ــ فتواضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين من أمتى ــ فتكبروا عليهم ؛ فان ذلك مذلة لهم وصغار بهم .

« وكان بعض العارفين اذا عارضه كلب فى الطريق ــ يوسع له ، ويمشى هو أسفل منه ، ويقول : هو أولى بالكرامة ؛ لأنى كثير الذنوب ، والكلب لا ذنب له .

(مما قاله ابن عجيبة فى إيقاظ الهمم) وذكره ابن عباد فى شرحه

الحكمة الستون بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِه[1] ــ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ[2] مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعَالى[3] مَالاَ يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ[4] ، وَلاَ تَلْحَقُهُ الإِشَارَةُ »[5] .

قال ابن عباد :

البركة فى العمر ــ أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة امكانه ، خشية فواته ، فيبادر الى الأعمال القلبية والبدنية ، ويستفرغ فى ذلك مجهوده بالكلية ، وفى أثناء ذلك يصل اليه من المنح الالهية ، ويشرق عليه من الأنوار الربانية ــ ما تعجز العبارة عنه ، ولا تنتهى الاشارة اليه ، وكل ذلك فى زمن يسير ، وعمر قصير ، فيرتفع له فى شهر مثلا ــ مالا يرتفع لغيره فى ألف شهر ، بمنزلة ليلة القدر ، العمل فيها لمن صادفها ــ خير من العمل فى ألف شهر .

قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر .

كان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه ، يقول : أوقاتنا ــ والحمد لله ــ كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر ، لا تطويله ، وزيادة مدته .

---

(١) البركة : الخير المتدارك . وبركة العمر تكون بالأعمال والأحوال والعلوم والمعارف .
من بورك له فى عمره : أى من أراد الله أن ينزل البركة فى عمره ــ رزقه الاقبال على مولاه .

(٢) ادرك فى يسير من الزمن . . . الخ ... أى أن البركه فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك فى عمره الطويل بغفلته .

(٣) منن الله : نعمه وفضله واحسانه ، ومايمتن به . جمع منة : الاحسان والإنعام .

(٤) مالا يدخل تحت دوائر العبارة : أى مالا تحيط به العبارة لكثرته .

(٥) ولا تلحقه الاشارة : أى لا تصل اليه الاشارة لرقته وصفائه .

وقيل هذا المعنى فى تأويل ماروى فى الخبر : « البر يزيد فى العمر » .

تعقيـــب

ليست العبرة بطول العمر ، وإنما العبرة بالبركة فيه ، وليست البركة فى العمر بكثرة أيامه ، وطول أزمانه ، وإنما البركه فيه ـــ بما يصحبه من العناية الالهية . فمن بارك الله له فى عمره ـــ رزقه فطنة ويقظة ، فيغتنم أوقاته ،ويبادر الى الأعمال الصالحة فى جميع ساعاته .

وبهذا يدرك فى زمن يسير ، وعمر قصير ـــ مما يمتن به الله عليه ـــ ما تعجز عنه العبارة لكثرته وشرفه ، ولا تصل اليه الاشارة ، لرقته وصفائه .

وحينئذ يرتفع له فى كل ليلة من لياليه من الأعمال الصالحة ـــ ما لا يرتفع لغيره فى ألف شهر ، فتكون لياليه مثل ليلة القدر ، العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر .

فإذا عمرت أوقاتك بذكر الله ، وطاعته والعمل الصالح ـــ فعمرك طويل ، وإن قلّت أيامه ، وإن شغلتك الشواغل عن ذكر الله ، والتقرب اليه ، والعمل الصالح ـــ فعمرك قصير ، وإن طالت أيامه .

وقد أشار الى ذلك المعنى « ابن عطاء الله » فى إحدى حكمه فقال :

« رب عمر اتسعت آماده ، وقلت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده » .

أصبح تراث عباقرة العرب والمسلمين السالفين على قيمته وأهميته ، بعيدا عن فهم الأجيال الجديدة ، نتيجة للظروف المعقدة لعصر السرعة من حيث تصارع وسائل الثقافة ، وتزاحم مصادر التوجيه ، واختلاف القدرات وضيق الوقت عن متابعة هذه الأعمال فى صورتها الأصلية وانحصار المناهج المقررة فى كتب معينة لا تتجاوزها .

ومن هنا كان اهتمامنا بسلسلة « تقريب التراث » ، محاولة لوضع المؤلفات الكبيرة الذائعة الشهرة ، فى متناول الكثرة الغالبة من القراء ، بالاستعانة بمجموعة متميزة من العلماء والمتخصصين ، تتولى عبء تقريبها ، مع مراعاة الاحتياجات الفكرية للعصر . .

الناشـــر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر